الله
فى الأديان السماوية

بنو إسرائيل

ومثل بنى إسرائيل - أو العبرانين - مثل جميع الأمم الغابرة فى تطور العقيدة. فقد دانوا زمنا بعبادة الأسلاف كما دانوا بعبادة الأوثان والكواكب وظواهر الطبيعة وطواطم الحجارة والأشجار والحيوان.

وبقيت فيهم عبادة الأوثان بعد دعوة إبراهيم عليه السلام وظهور الأنبياء، فعبدوا «عجل الذهب» فى سيناء، بعد خروجهم من الديار المصرية. وفى الإصحاح الثامن عشر من كتاب الملوك الثانى أن حزقيا ملك يهودا «. . . أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها. . .».

وجاء فى الإصحاح التاسع عشر من كتاب صموئيل الأول أن إحدى زوجات داود عليه السلام - ميكال - «أخذت التراقيم ووضعته فى الفراش ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه وغطته بثوب».

والمعروف أن التراقيم أو الطرافين بصيغة الجمع هى تماثيل على صورة البشر تقام فى البيوت وتحمل فى السفر، ويرمز بها إلى الله.

وقد دعاهم موسى عليه السلام إلى التوحيد ونبذ الأصنام والأوثان. وقيل إنه عليه السلام أول من سمى الإله «يهوا» وهو اسم لا يعرف اشتقاقه على التحقيق. فيصح أنه من مادة الحياة ويصح أنه نداء لضمير الغائب، لأن بنى إسرائيل كانوا يتقون ذكره توقيرا ويكتفون بالإشارة إليه، ويصح غير ذلك من الفروض.

وعبدوا الإله باسم «إيل» أى القوى فى اللغة الآرامية. ولكن الأسماء العبرية تدل على أنهم قد لبثوا زمانا يصفون الإيل بالصفات البشرية ويقبلون

نسبة القرابة الإنسانية إليه. كما فى اسم عمائيل من «العمومة» أو «إيل أب» من الأبوة وغير ذلك من أواصر الأسرة البشرية.

وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته. فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويخشى مركبات الجبال. وأنه دفن موسى حينما مات فى موآب.

وقد خلت الكتب الإسرائيلية من ذكر البعث واليوم الآخر. فالأرض السفلى، أو الجب، أو شيول هى الهاوية التى تأوى إليها الأيتام بعد الموت، ولا نجاة منها لميت... «وإن الذى ينزل إلى الهوية لا يصعد..».

وأول إشارة ليوم كيوم البعث وردت فى الإصحاح الرابع والعشرين من كتاب أشعيا الذى عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد، وفيه نبوءة عن يوم «يطالب فيه الرب جند العلاء فى العلاء ويجمعون جمعا كأسارى فى سجن... ويخجل القمر وتخزى الشمس لأن رب الجنود قد ملك فى جبل صهيون وفى أورشليم» وفى الإصحاح السابع والعشرين بعده أن الرب يعاقب بسيفه القاسى الشديد فى ذلك اليوم «لوياثان الحية العارية: لوياثان الحية المتحوية ويقتل التنين الذى فى البحر» ومن أعمال ذلك اليوم كما جا فى الإصحاح الخامس والعشرين أن رب الجنود «يصنع لجميع الشعوب وليمة سمائن: وليمة خمر على دردى سمائن ممخة: دردى مصفى».

وجاءت إشارة أخرى إلى يوم البعث والدينونة فى الإصحاح الثانى عشر من كتاب دانيال، وهى أصرح من الإشارات السابقة حيث يقوله فيها النبى: «إن كثيرين من الرافدين فى تراب الأرض يستيقظون: هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار والازدراء الأبدى..» ويلاحظ أن كتاب دانيال لا يحسب من كتب العهد القديم فى جميع النسخ.

ويرجع تاريخ هذه النبوءة إلى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد حوالى سنة

مـائة وخـمس وسـتين، إنما كان الـثواب والعـقـاب قـبل ذلك نصـرا يؤتاه الإسرائيليـون على الأعداء أو بلاء يصابون به على أيدى الأقـوياء، جزاء لهم على خيانة «يهوا» وعبادة غيره من أرباب الشعوب.

وكان معنى الكفر فى الإسرائيلية الأولـى كمعنى الخيانة الوطنية فى هذه الأيام. فكانت للشعوب آلهة يؤمن الإسرائـيليون بوجودها، ولكنهم يحرمون عبادتها كـتحريم الانتماء إلى دولة أجنبية. فـرب الشعب أحق بولائه وعبادته من الأرباب الغرباء.

وظلوا على ذلك إلى أن فـهموا «الوحـدانية» التى تتعـالى على الشبـيه والنظير فى أيام أشـعيا الثانى القـائل بلسان الرب: «بمن تشبـهوننى وتنوونني وتمثلوننى لنتشـابه؟». . وهو الذى شدد النكير عليـهم قائلا إن الله هو الأول منذ القـدم، وهو المخبر مـنذ البدء بالأخيـر، ونعى عليـهم أن يعبدوا صـنما «يرفعـونه على الكتف ويحـملونه ويضعـونه فى مكانه ليقف فـى موضع ولا يبرحه، وينادیه الداعى فلا يجيب».

وكان سـقوط الدول الكبيرة في عـهد اشعـيا الثانى مؤذنا باقـتراب يوم إسرائيل الموعود. فقد تداعت بابل ومـصر وآذنت فارس بالتداعى والانقسام، فتجـدد رجاء إسرائيل فى ملك العالـم، وفسروا سقوط الدول الكبـرى بغلبة «يهوا» عليا وعقوبت لهـا على ما أسلفت من الإساءة إلى شبه، ولاح لهم - لأول مـرة - أن ربهم يبسط ظلـه على الأرض بما رحبت، وأن يوم الخـلاص الموعود جد قريب.

والغالب فى وصفهم للإله أنه غبـور شديد البطش متعطش إلى الدماء، سريع الغضب ينتقم من شعبه كمـا ينتقم من أعداء شعبه، وذلك موسى عليه السلام وصفه بالرحـمة وفريقا من أنبيائهم وصـفوه بالحب واللطف وعلموهم أنه يحب عـباده ويطلب من عبـاده أن يحبـوه، أو كما قـال هوشع «إنه يريد رحمـة لا ذبيحـة» وأن خلائق العـدل والحق والإحسان والمراحـم هى خلائق الأبرار.

وقد شغلت العقائد االإسرائيلية حيزا كبيرا من مقارنات لأديان، أنها:

«أولا» نقطة التحول بين العبادات القديمة والعبادات فى الديانات الكتابية.

ولأنها «ثانيا» صحبت التطور فى فكرة المسيح المنتظر من مبدئها، فكانت تمهيدا متوالي للدعوة المسيحية، وهى أوسع الدعوات الكتابية انتشارا بين الأمم التى عنيت بالدراسات العلمية الحديثة فى مقارنات الأديان.

ولأنها «ثالثا» موضوع مقابلة مستفيضة بينها وبين عقائد البابيين والمصريين ولفرس والهنود الأقدمين، ولها صلة قريبة بعقائد اليونان قبل عصر الفلسفة وبعدها إلى عصر السيد المسيح.

فكانت العقائد الإسرائيلية نقطة التحول... لأنها بدأت بتصور الإله على صورة إنسان يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويغادر من منافسيه ويخص قبيلته وحدها بالبركة والتشريع، وقرنت هذه الصورة تارة بعبادة الأصنام وتارة بعبادة الموتى أو ظواهر الطبيعة وتماثيل الطواطم من الحيوان والنبات، ثم تطورت صفات الله فى اعتقاد أبنائها من أعلى إلى أعلى حتى عبدوا الإله الأحد المنزه عن التجسد وعن خلائق البشر القادر على كل شىء والعليم بما كان ويكون، والرحيم الذى يحب الرحماء والودعاء والعاملين بالبر والعدل والإحسان.

ثبتت فكرة «المسيح المنتظر» فى عقائد بنى إسرائيل بعد زوال ملكهم وانتقالهم إلى الأسر فى بابل قبل الميلاد بنيف وخمسة قرون. ومعنى كلمة المسيح «الممسوح بزيت البركة» لأنهم كانوا يمسحون به الملوك والأنبياء والكهان والبطاريق. فان شاؤل الملك يسمى بمسيح الرب كما جاء على لسان داود فى كتاب صموئيل الأول: «حاشانى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى مسيح الرب»... وكانوا يمسحون الأنبياء بالزيت المبارك كما جاء فى كتاب الملوك الأول «وأمسح اليشع بن شافاط.. نبيا عوضا عنك» ويمسحون به

الكهان كما جاء فى كتاب الخروج: «هذا ما نصنعه لهم لتقديسهم.. نأخذ دهن المسحة ونسكبه على رأسه ونمسحه» ويمسحون به البطارقة ويسمونهم بالمسحاء كما جاء ى المزمور الخامس بعد المائة «لا تمسوا مسحائى ولا تسيئوا إلى أنبيائى..» بل كانوا يمسحون به كل ما يريدون تقديسه كما جاء فى كتاب اللاويين: «ثم أخذ موسى دهن المسحة ومسح المكن وكل ما فيه وقدسه. ونضح منه على المذبح سبع مرات، ومسح المذبح وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها لتقديسها، وصب من دهن المسحة على رأس هارون ومسحه لتقديسه».

وكانوا فى مبدأ الأمر ينتظرونه ملكا فاتحا مظفرا من نسل داود، ويسمونه ابنا لله كما قال ناتان لداود عليه السلام فى كتاب صموئيل الثانى: «هو يبنى بيتا لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد.. أنا أكون له أبا وهو يكون لى ابنا».

ولكنهم أطلقوا اسم المسيح على كل من يعاقب أعداءهم ويفتح لهم باب الخلاص من أسرهم كما فعل كورش بالبابلين، فجاء فى كتاب أشعيا: «هكذا يقول الرب لمسيحه: لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس به أمما..».

وخطر حينا للنبيين زكريا وحجاى فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد أن زربابل - وإلى يهودا - هو المسيح المنتظر. لأنه أعاد بناء البيت فى السنة الثانية للملك داريوس.

وتهذبت هذه العقيدة مع الزمن فأصبحوا ينتظرون الخلاص على يد الهداة العدلين بعد طول انتظاره من زمرة الغزاة الفاتحين. فقال زكريا فى رؤياه: «ابتهجى جدا يا ابنة صهيون. اهتفى يا بنت أورشليم. هو ذا ملكك يأتى إليك: هو عادل ومنصور وديع. راكب على حمار: على جحش بن أتان».

وقد طال المقارنات بين بعض الصلوات الإسرائيلية وبعض الصلوات المصرية.. ولكن علماء الأديان عقدوا المقارنة الكبرى بين مأثورات بابل وفارس ومأثورات إسرائيل.

فقصة الخليقة فى العقائد الإسرائيلية الأولى تشابه قصة الخليقة فى ألواح بابل.. وعقيدة «المخلص» المنتظر موجودة فى الديانة الفارسية وموجودة فى الديانة الإسرائيلية.. وكان البابلون يؤمنون بأن الإنسان تتمرد على قسمة الموت وطمح إلى خلود كخلود الأرباب فبحث عن ثمرة البقاء فى السماء وخدعه إله ماكر عن بغيته فناوله بديلا عنها ثمرة تشبهها فى ظاهرها ولكنها ثمرة الفناء، وهى ثمرة الحب التى تعطى الفناء فى صورة البقاء، وهذه فى جملتها لا فى تفصيلها قريبة من المأثورات الإسرائيلية فى هذا الموضوع.

وعند البابليين قصة مفصلة عن الطوفان، ولكنها فى الواقع متواترة شاملة توجد بقاياها فى المأثورات القديمة من أمريكا الجنوبية إلى الهند. فيروى أهل إقليم كنديماركا Cundimarca بأمريكا الجنوبية أن امرأة الرجل المقدس بوشيكا أولعت بالسحر وأصغت إلى وسواس الشيطان فأخرجت نهر فونزا Funzha من مجراه وأغرقت الإقليم كله بإنسانه وحيوانه ونباته، فلم يعتصم منه إلا من تبع بوشيكا إلى الجبال. ثم عاد بوشيكا فجمع قومه وعلمهم عبادة الشمس وأسلم الروح.

وقصة الطوفان عند المكسيكيين المعروفين بالشيشميين Chichimygues أن العصر الأول من عصور الخليقة - وهو المسمى عندهم بعصر أتوناتيو - أى عصر شمس الماء - قد انتهى بطوفان جارف نجا منه رجل واحد اسمه تزبى وامرأته ششكنزال، وكانت نجاتهما على زورق مصنوع من خشب الصفصاف، ويروى أهل بيرو قصة شبيهة بقصة المكسيكيين.

وعموم قصة الطوفان يثبت وقوع الطوفان وإن تقادم به العهد فتعددت به الروايات.

وقد طالت المقارنات كما أسلفنا بين مصادر العقيدة عند الإسرائيليين ومصادرها عند شعوب بابل ومصر وفارس والهند على التخصيص.

فبعض علماء المقارنات يرى أن البابليين نقلوا قصة الخليقة وقصة الطوفان من قوم إبراهيم عليه السلام لأنه نشأ فيهم قبل الميلاد بألفى سنة على التقريب.

وبعضهم يرى على نقيض ذلك أن هذا النقل جائز فى المأثورات التى انقطعت إسنادها وأمكن أن تبدأ عند البابليين والإسرائيليين على السواء، ولكنه غير جائز فى المأثورات التى تسلسلت مما قبلها فى عقائد بابل وفارس.

ونحن هنا لا تعنينا مقارنات العقائد إلا من جانب واحد، وهو جانب التطور البشرى فى إدراك صفات الله.

ومتى قصرنا النظر على هذا الجانب فالثابت من تاريخ الديانة الإسرائيلية أنها انقلبت بعد عصر إبراهيم عليه السلام إلى وثنية كالوثنية البابلية، وأن التوحيد الذى بشر به إخناتون فى مصر القديمة سابق لشيوع التوحيد فى شعوب إسرائيل، ولكن العقيدة الإسرائيلية عاشت بعد اختفاء عقيدة إخناتون وبعد عصر موسى عليه السلام... فكانت هى كما تقدم نقطة التحول فى تطور الاعتقاد بالله بين الأمم التى تؤمن اليوم بالأديان الكتابية.

***

أو ما يقع فى النفس من متابعة الأطوار الدينية - كما أوجزناها كل الإيجاز فيما تقدم - أن مهمة الدين هى مهمة النوع الإنسانى كله، قد تلمس فيها السبيل القيم من أقصى عصور ماضيه إلى حاضره الذى نحن فيه، وإنه كلما ترقى بتفكيره وترقى بأخلاقه وأحواله تهيأ لقبول عقيدة التوحيد، وترقى فى هذا الاتجاه من تنزيه إلى تنزيه، ومن كمال إلى كمال.

وتتجلى هذه الظاهرة فى الأديان القديمة التى أتمت نضجها وبلغت مستقرها فى زمانها واستكملت من قبل جميع شعائرها، كالديانة المجوسية التى أسلفنا تلخيصها كما اعتقدها أهلها قبيل الميلاد وبعده بقليل. فإن أبناها قد أخذوا بعقيدة التوحيد بعد احتكاكهم بالمسلمين وأصبح المجوس الذين يسمون اليوم بالبارسيين يؤمنون بإله واحد: هو إله الخير يزدان ولا يشركون معه أهرمن كما فعل أسلافهم الأقدمون. قال العلامة جيمس دار مستتر Dar-mesteter فى كلامه على زرادشت من كتاب حوادث العالم الكبرى: «أنهم قد انتهوا إلى الوحدانية، وأن الدكتور ويلسون حين كان مشغولا بمناقشة البارسيين منذ أربعين سنة - نعت دينهم بالثنوية فأنكر مجادلوه هذه التهمة، وقالوا إن أهرمن لم يكن له وجود حقيقى وإنما هو رمز لما يجيش بنفس الإنسان من خواطر السوء. فلم يعسر على الدكتور أن يبدى لهم أنهم يناقضون بذلك كتبهم المقدسة. ولم يزل النقاد الأوروبيون حينا بعد حين يعجبون للتقدم الذى تقدمه البارسيون فى المذهب العقلى بعد مدرسة فولتير وجيبون. ولكن الواقع أنه ليس للمذاهب الأوروبية تأثير وراء هذا التقدم. فإن البارسيين قبل أن يسمعوا أسطورة تامورات الذى امتطى أهرمن ثلاثين سنة كما يمتطى الحصان - بأنها تعنى أن ذلك الملك قد كبح شهواته وزجر نوازع الشر التى تحيط بسريرة الخامس عشر للميلاد ولا يزال شائعا اليوم بين المفسرين. وليس فى الوسع أن

نقرر على التحقيق مبلغ تأثير الديانة لإسلامية فى هذا التحول. فقد نلمح هنالك علامات ضعيفة على ابتدائه منذ عهد المجوس الأقدمين..».

ولابد أن نلاحظ هنا أن المهم هو تهيؤ الذهن للتوحيد، وليس المهم هو ما قصده الإنسان فى نيته وعمله فعلا فى هذا السبيل.

فلا الحقائق الدينية ولا الحقائق العلمية يقدح فيها ما قصده العقل أو قصدته النوازع النفسية قبل الوصول إليها.

فإن الإنسان قصد تسيير السفن وتنظيم الملاحة فعرف الفلك ورصد ظواهر السماء، وقصد قياس المزارع فعرف الهندسة، وقصد الذهب فعرف الكيمياء، وقصد الشعوذة فعرف الطب، وبدأ بالفلسفة من بداءات أعجب من بداءات الأديان، ولم يحسب ذلك عيبا على الحقائق التى انتهى إليها من هذا السبيل.

فالمهم فى الأطوار الدينية هو الجافز الدائم الذى لزم النوع الإنسانى من أقدم عصوره، وهو الوجهة القويمة التى يسعى إليها ويقترب منها، ولا تزال بداهة الفطرة سابقة فيها لأشواط العقل فى مضمار الفلسفة والتفكير. وهذه هى معجزة الجهود الدينية عند الالتفات إليها وإنعام النظر فيها. فإن عقول الفلاسفة أقدر على التأمل من بداهة الجماعات، ولكن الذى رأيناه فى تاريخ الفلسفة قديما وحديثا أنها أخذت من بداهة الجماعات،أساسها المتينة ولم ترتفع إلى ذروة أعلى من التى ترقى إليها الضمير بعقيدة التوحيد والتنزيه، ولا نفهم هذا عقلا إلا على اعتبار واحد، وهو أن هداية الله تأخذ بيد الإنسان خطوة فخطوة فى هذا المرتقى الوعر. فيهتدى فى كل مرحلة من مراحلها بمقدار.

لقد آمن الإنسان بالإله الواحد من طريق العقيدة قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون، ولكنه لم يعرف «السبب الأول» من طريق الفلسفة إلا حوالى القرن الرابع قبل الميلاد. وكان جل اعتماده فى ذلك على الدين.

فمن الدين تلقى الفلاسفة فكرتهم عن الروح، ومن الدين تلقوا فكرتهم عن بطلان الظواهر المادية، ومنه تعلموا التفرقة بين العقل والمادة فتعلموا كيف ينفذون إلى ما وراء الحس ويوغلون فى تصفية كنه الموجودات إلى أعماق لا تغوص فيها الأجسام وآفاق لا تدركها الأبصار.

وقد استعاروا من الأديان الأولى عقائد المؤمنين بها فى تعليل أصول الكائنات والتنبؤ عن مصيرها بعد وفاء آجالها من الوجود. فقالوا إن السماء والأرض خلقتا من الماء، وقالوا بالدورات الكونية التى تبدئ العالم وتعيده كرة أخرى على طويل الأدهار والآباد، وقالوا بالحساب والعقاب كما قال سابقوهم من المتدينين، وفهموا أن قدرة الله تخالف قدرة القوى المادية التى تعمل بالجهد والعناء... فتعلموا أن الله يخلق بالكلمة أو بالمشيئة فيفعل ما يريد. وأخذوا من الديانات القديمة صوابها وخطأها وحقائقها وأوهامها، ثم محصوها ومحضوها فلم يجاوزوا بالتمحيص والتمحيض آفاق الإيمان بوحدانية الله.

وإننا لنحسب أن الاهتداء إلى القوة الروحية أو قوة العقل هو أعلى ما ارتفع إليه فكر الإنسان وضميره، بإلهام الدين وبحث الفلسفة والعلوم.. فليست القوة كثافة ولا مادة مجسمة للعينين واليدين. وأن القوة المادية نفسها حين تدخل فى حساب العقل لهى أقرب إلى أن تقاس بالأرقام والتقديرات من أن تقاس بالثقل والضخامة. بل الثقل نفسه ليس هو إلا معنى من المعانى نسميه بالجاذبية ونقيسه بالتقديرات الرياضية.

ولهذا نستكبر على البادئين بهذه الفكرة المنزهة قبل عشرات القرون أنهم وثبوا إليها وثبة واحدة وقصدوا بها ما نقصده اليوم حين نتكلم فى الفلسفة تارة ونتكلم فى العلوم الطبيعية تارة أخرى.

ونتخذ من تطور هذه الفكرة مثالا للأساليب الإنسانية فى الوصول إلى حقائق الأشياء، ودليلا على القاعدة التى نقررها لوزن الأطوار الدينية بميزانها

الصحيح، وهى أن العبرة بالوجهة التى نبلغها لا بالدواعى التى تحركنا إلى تلك الوجهة، وأن قصد الإنسان لا يعبر تمام التعبير عن قصد القضاء الذى يسيره ويغريه بالعمل والاجتهاد.

فنحن نرجح أن العقل الذى خطر له أن الله يخلق بكلمة ولا يخلق بجهد من جهود الحركة المادية - قد استعار هذه الفكرة السامية من شىء رآه لا من شىء بحثه واستقصاه.

وأقرب هذه الأشياء المرئية إليه هى قدرة الساحر على التأثير بكلمة يقولها والسيطرة على الأجسام والأجرام والضخام بالهمهمة والتعزيم، وهى ضرب من الكلام.

والله أقدر من الساحر. فإذا قدر الساحر أن يحرك الصخور بكلمة ويكسر السلاح بكلمة، ويقتل العدو بكلمة، فأولى بالخالق الأعظم أن يملك هذه القدرة ويملك ما هو أعظم منها وأدل على المضاء ونفاذ المشيئة، فلا جرم يشاء فيكون ما يشاء.

فلما جاءت الفلسفة وتناولت هذه الفكرة الكبرى لم تصل إلى شوط أبعد من شوطها ولكنها وصلت إلى بداءة أقوم من بداءتها. فكان مثلها فى هذا كمثل من وجد الكنز ورسم الدروب التى تتأدى إليه. وكان مثل الأسبقين كمثل من عثر بالكنز فوقع فيه. وبقى الكنز بجوهره ونفاسته لمن يسلك إليه منهجه القويم.

وسنرى للفلسفة - كما رأينا للعقيدة - بدايات كثيرة كهذه البداية وتوفيقات كثيرة كهذ التوفيق.. بل سنرى أن بداية الفلسفة نفسها لم تخل من توفيق بين لا يد فيه لتدبير ذويه.

فقد كان للتوفيق يد ملحوظة فى زمان الفلسفة ومكانها. فبدأت حوالى القرن السادس قبل الميلاد فى العصر الذى بلغت فيه اديانات القديمة أقصى

آمادها من تصور الفكرة الإلهية والعقيدة الروحية، وكان ذلك العصر هو عصر النضج والتمام فى الديانة الإسرائيلية، وهى آخر الحلقات فى السلسلة القديمة وأول الحلقات فى سلسلة جديدة من ديانات الوحى والأنبياء، أو الديانات الكتابية.

أما مكان الفلسفة اليونانية فهو رقعة من الأرض على اتصال بأبناء كل دين قديم من تخوم الهند إلى ضفاف النيل، وزاد اتصالها بتلك الأمم زحوف الفاتحين وجموع المهاجرين، تارة من المشرق إلى المغرب وتارة من المغرب إلى المشرق.. فكان اليونان فى آسيا الصغرى يعرفون عبادات المجوس والبابليين والمصريين واليهود، وكان روادهم يتنقلون بين الأقطار فيعرفون فيها مالا يعرف فى بلادهم من الخفايا والأسرار. وساعدهم الحظ فخلت بلادهم من الكهانات الراسخة التى تستأثر بالتفكير فى مسائل الكون ومسائل العقيدة. لأن الكهانات الراسخة إنما تقوم مع العروش العريقة على أودية الأنهار الكبار، كمصر والعراق وبعض الأقاليم الهندية، ولم يكن فى أرض يونان كلها نهر تتأثل عليه دولة شامخة وكهانة مستقرة. فطرقوا أبواب الفكر أحرارا فير محجمين عن معضلة معقدة ولا منقادين لإمامة متحكمة. فاختاروا فيما أخذوه واختاروا فيما نبذوه، وتزودوا من رسالة الإيمان لرسالة البحث فى الحكمة والعلوم.

وهم - على إعفائهم من سلطان الهياكل العريقة - لم تخل فلسفة لهم قط من فكرة دينية فى أساسها أو فى مضامينها... ولا استثناء فى ذلك لأكبرهم وأقدرهم، وهم سقراط وأفلاطون وأرسطو. فإن طلاقة أرسطو فى مباحثه العلمية الفلسفية لم تخرجه من سلطان الفكرة الدينية فى القول بالهيولى والحركة الأولى. فلولا الإيمان بالخالق والمخلوق والروح والجسد لما خلص أرسطو إلى الصورة والمادة والتفرقة بين العقل والهيولى.

وأول المشهورين من فلاسفة اليونان طاليس المليطى الملقب بأبى

الحكماء. كان يقول كما قالت الأديان من قبله أن الماء أصل كل شيء، وأن الروح تحرك المادة، فما من متحرك إلا وهو ذو روح أو منقاد لذى روح. ولا يستطيع المغناطيس مثلا أن يجذب الحديد إلا بروح فيه.

ويظن شارحوه أنه قال بأصالة الماء لأنه رأى النطفة سائلة ورأى النبات الرطب يدخل الجسم فيقلب فيه إلى حرارة حيوانية، ووهم أن الأرض سابحة على الماء، وأن الشمس تخرج منه وتعود إليه. فإذا غلظ فهو أرض وإذا رق فهو بخار أو نار وهواء.

والعالم على زعمه مملوء بالأرباب، وهى التى تحرك فيه كل متحرك من الحى والجماد.

وجاء بعده انكسماندر - ولعله أكبر الحكماء من هذا الطراز - فقال أن الأشياء كلها تخرج من مادة أولية ولكنها ليست الماء ولا النار ولا الهواء ولا التراب. لأن الماء لو كان أصلا لهذه العناصر لغلب عليها وطواها، وكذلك التراب والهواء والنار فهى إذن سواء كلها فى الانتساب إلى أصل أقدم منها، وهى تتزاوج وتتمازج ويود كل عنصر منها أن يجور على حصة غيره فى الوجود. فإذا خرج بها الشطط عن سوء الاعتدال عادت كلها إلى معدنها الأول وزالت الفوارق بين الأجسام والأحياء لتعود إلى الوجود من جديد، وهكذا دواليك فى حركة دائمة لا انقطاع لها منذ القدم إلى غير نهاية. فهى على هذا دورات كونية كالدورات التى قال بها الهنود والبابليون.

ويقول انكسماندر بالتطهير والتكفي فى دورات الخلق المتعاقبة كما يقول بهما الهنود. . «فإلى المعدن الذى خرجت منه الأشياء تعود كرة أخرى كما قضى عليها، تكفيرا وترضية عن جور بعضها على بعض، وفقا لقضاء الزمن».

وهو يقول بخروج الإنسان الأول من الماء وطين البحر، ولكنه يستبعد

خروجه دفعة واحدة لأنه فى طفولته ضعيف غير مستغن عن الحضانة والكفالة. وكان الأقدمون يزعمون أن سمك «القرش» يقذف جنينه من فيه ثم لا يزال يبتلعه ويقذفه فى كل مرة أكبر مما قبلها حتى يبلغ أشده. فيرسله فى الماء ولا يعود إلى ابتلاعه.. فخطر لانكسماندر أن الإنسان الأول ربما خرج من جوف حيوان آخر على هذه الوتيرة، ولا يبعد أنه استعار هذا الخاطر من أساطير أهل بابل وما يروونه عن «الإنسان» المائى الذى يتألف من نصف إنسان ونصف حوت.

وظاهر من أقوال انكسماندر أن مسألة الخلق عنده هى مسألة تحول من شكل إلى شكل ومن صورة إلى صورة، وليست مسألة إنشاء أو أحداث بعد عدم. وأن المادة الأولية التى تئول إليها جميع الموجودات هى كذلك مصدر الأرباب وأنصاف الأرباب، ومصدر المحركات والمتحركات، ولا مهرب لرب أو مربوب من الفناء آخر الأمر فى معدنها الأصيل، وهذا بعينه هو مذهب الهنود كما قدمناه.

ولم يزد أناكسين - تلميذ انكسماندر - شيئًا يذكر عن أقوال أستاذه فى باب المعرفة الإلهية. وإن كانت له تخمينات قيمة فى الجاذبية والذرات وتعريفات الحركة، وقد ختمت به مدرسة مليطية ومات فى الربع الأخير من القرن السادس قبل الميلاد.

وكأنما كانت مدرسة مليطية نفخة فى بوق مسموع فى طليعة جند المحكمة، ولا سيما الحكمة الإلهية. فإن آسيا الصغرى وما حولها أنجبت فى الجيل التالى لجيل طاليس وزملائه طائفة من أعظم الفلاسفة أثرا فى مذاهب الحكمة الإلهية، ومن هذه الطائفة أكسينوفان وهيرقليطس وفيثاغورس وديمقريطس وانكسغوراس.

ورسالة اكسينوفان الكبرى تنحصر فى أنحائه الشديد على كل تشبيه أو تمثيل توصف به الأرباب. لأن حقيقة الإله عنده من وراء خيال الإنسان، وإنما

يتخيل الإنسان أربابه على هيئته ويعزو إليها أخلاقا كأخلاقه وأعمالا كأعماله. ولو كان للحصان يد تحسن التصوير وسئل أن يصور إلهه لصوره حصانا مثله، ولو تخيل الأثيوبى ربه لتخيله أسود أفطس على مثاله. وهيهات للعقل البشرى أن ينفذ إلى الحقيقة الإلهية أو يقاربها بعض المقاربة. فكان ما قيل عنها وما سيقال قد يكون فيه الصواب أو بعض الصواب. ولكنها مصادفة يجهلها القائل ولا يقيسها السامع بقياس معلوم.

أما هيرقليطس فلعله أعظم هؤلاء الأربعة أو أعظم فلاسفج آسيا الصغرى على الإطلاق.. ويرجح أن هيرقليطس اتصل ببعض الآراميين أو ببعض اليهود. لأن الآراميين الذين تهودوا كان من عادتهم - كما يتبين من ترجمتهم للتوراة المعروفة بالترجوميم - أن يذكروا كلمة الله «ممرا» Memra والحضور «شكينة» من السكن أو مكان الحضور.. وينسبون إليها أعمال الله فى مقام الإشارة والتعظيم. فيقولون حضرة الله كما يقولون كلمة الله وهم يعنون الإله ويؤثرون الإشارة إليه تعظيما له عن الذكر الصريح. ومثل هذا شائع إلى اليوم فى اللغات الشرقية التى تذك الحضرة وتعنى صاحب الحضرة وتذكر الأمر والكلمة وتعنى صاحب الأمر والكلمة.. فكلمة الله على هذا المعنى ترادف أمر الله أو مشيئة الله عند الآراميين واليهود.

وكان هيرقليطس يقول أن الكلمة Logos هى مساك الوجود كله، وإنها هى النظام الذى يحيط به ويتغلغل فيه، وأنها لا تصنع إلا الصالح من الأمور «فعند الله كل شىء جميل وخير، ولكن الناس هم الذين يعتبرون بعض الأمور من الخير وبعضها من الشر».

وتكاد الكلمة عنده أن تكون مرادفة لمعنى الله. فهى النظام الذى يضع كل شىء فى موضعه. وكذلك الله: «هو النهار والليل والشتاء والصيف، والحرب والسلم، والشبع والجوع، ويتخذ الأشكال والمظاهر على اختلاف. كالنار وهى تمتزج بالأبازير فيسمى كل منها باسمه لا باسم النار».

والاختلاف هو أساس الانسجام والنظام. فلولا النقائض لما كان النغم المنسجم ولولا التعدد لما كانت الوحدة: «فكل شيء يأتي من الأحد، والأحد يأتي من كل شيء.. ولكن الكثرة دون الوحدة في الوجود الحقيقي، وذلك هو الله».

لكن هيرقليطس لا يقول بالخالق ولا بحاجة الموجودات إلى موجد. «فهذه الدنيا التي هي سواء للجميع لم يخلقها أحد من الآلهة ولا من الناس، ولكنها كانت منذ الأزل وتكون الآن وتظل كائنة في كل زمان. نارا خالدة تتقد بحساب وتنطفئ بحساب».

فالنار هي أصل العناصر وهي المصدر الأول لجميع الكائنات، وهي حركة دائمة لا انقطاع لها في لحظة من اللحظات فأنت لا تر الشيء الواحد غير مرة واحدة ولا ترى شمسا واحدة كل صباح.. أو أنت على تعبيره لا تنزل النهر مرتين لأن أمواجه تطرد ولا تبقى كما لمستها في المرة الأولى. وهذا الجيشان الدائم يستخرج من كل شيء ضده وتتم الألفة بين الأضداد المتقابلة بميزان العدل الذي لا يغفل ولا ينى عن تسوية المقادير وزيادة الناقص ونقص الزائد. ولهذا الرأي في الأضداد وتناسقها شأنه في مذاهب الفلسفة الحديثة، لأنه رائد الثائية التي قال بها «هيجل» واشتق منها كارل ماركس مذهبه المشهور في الثنائية المادية.

وهيرقليطس كما تقدم يقول باستغناء الموجودات عن الموجد ولكنه يقل بحاجتها إلى العدل الإلهي الذي لا قوام لها بغيره، ويتكلم عن الله كلامه عن «ذات» مدبرة مريدة ومن ذاك قوله «إن الله لا شك مساك العدل في الكون كله»... و«إن أعمال الإنسان خلو من العقل ولكن أعمال الله لا تخلو منه.. وما الإنسان إلا كالطفل بالقياس إلى الله.. وأعقل الناس كالنسناس بالنسبة إلى الإله، وهو إذا قورن بالإله كان دميما شائها كما يشوه أجمل القردة إذا قرن بالإنسان..».

وقد ولد فيثاغورس فى جزيرة «ساموس» على مقربة من آسيا الصغرى. وكان مذهبه نسخة يونانية من الدينة الهندية. فهو يقول بتناسخ الأرواح وبطلان المادة وتجدد الدورات الكونية، ولا يرى حقيقة غير الحقيقة الإلهية المنبثة فى الكون كله، ويفهم من لامه أنه يقول بوحدة الوجود كما يقول بالحلول. أى حلول الروح الإلهية فى الإنسان حتى يصبح أكثر من إنسان وأقل من إله. كما قال: «هناك أرباب وأناسى، وكائنات مثل فيثاغورس» وأقدم الكائنات عنده أربعة هى: الأب والصمت والعقل والحق، ومن الأولين صدر الاثنان الآخران.

وهو يوصى بالحيوان ويحرم أكل لحمه. ويعتقد أن جسد الحيوان قد يشتمل على روح إنسان يتطهر بالتناسخ حتى يكفر عن آثامه فيلحق بالرفيق الأعلى، وتعفى روحه من عقوبة الرجعة إلى الأجساد.

وليست النار ولا عنصر من العناصر التى حصرها القدماء فى النار والتراب والهواء والماء أصلا للموجودات. ولكن العدد هو أصل كل موجود لأنه يلازم الوجود ولا ينفصل عنه كما قد ينفصل عنه اللون أو الثقل أو الحجم أو الكثافة المحسوسة. فالنسب العددية هى مناط الاختلاف بين جميع الأشياء، وهذا الرأى - على ما يبدو من سخفه - هو أقرب إلى الصواب من آراء الفلاسفة الآخرين.. لأنه يتعزز بالكشوف العلمية عن المادة وسبب الاختلاف بين عناصرها وردها جميعا إلى حركات تتمايز بالنسب العددية فى الخلايا والذرات.. وكان ديمقريطس يقول مثل قوله فى تركيب الأشياء من العدد، ولكنه يخالفه فى المادية ويعنى بالعدد عدد الذرات الصغيرة التى تتركب منها جميع الموجودات، ومنها الأرباب.

ويأتى انكسغوراس بعد فيثاغورس فى الزمن والمكانة بين حكماء آسيا الصغرى.. وهو الذى عمم كلام هيرقليطس عن الكلمة Logos وسماا Mous أى العقل ووصفه بأنه جوهر مجرد خالد واحد لا يتعدد، وأنه هو مصدر

حركة دوارة تدفع مـا خف إلى أعلى الكون وتهبط بما سفل إلى مـركزه. وما من شيء إلا وفيـه أضداد حتى أصغـر الذرات التى لا ترد بالعين. إلا العقل فإنه منزه عن التعدد والتناقض.. وهو الله أو هو الصلة بين الله والعالم. ولا فرق بين العقل فى الإنسان وفى الحيوان وفى الجماد إلا بالأداة التى يستخدمها ولولا تفـاوت الأجسـاد فى إتقـان الأداة لما اختلفت عـقـول البشـر وعقـول الحيوانات وعقول الحجارة الصماء.

والأثر الأكبر الذى يذكـر لهذا الفيلسوف أنه كان أول مـن نقل الفلسفة من آسـيا الصـغرى إلى أثينا فى أيام بركليـس. وكانت أثينا قـبل ذلك تتنكر للمباحث الفلسفية وتتهم من يبحثون فيها وينقطعون عن الشعائر الدينية، ولم يسلم انكسغوراس من تعصب أهلها لأنهم سنوا قانونا يعاقب كل من يتعرض للأشياء «التى فى العلى» ويهـجر عبادة الأرباب الأولمبية ومـا جرى مجراها، واتهموه بالكفر لأنه كان يقول بأن الشمس صـخر محمى وأن القمر كالأرض من تراب، ولولا بركليس لما نجا من مثير كمصير سقراط بعده بقليل.

وقبـل أن ننتقل إلى المدرسـة الأثينية الكبـرى - وهى مـدرسة سـقراط وأفلاطن وأرسطـو - نلم بمدارس ثلاث من مدارس الفلسـفة التى كـانت لها عناية خاصة، أو كان لها شأن خاص - بمسـائل العقيدة الدينية، وهى مدرسة إيطاليـا الجنوبية ومـدرسة الرواقـيين ومدرسـة أبيقور، وبـعض فلاسفـة هذه المدارس لاحق للمدرسة الأثينية فى الزمان.

ويرجع نشاط المدرسة الإيطـالية أيضًا إلى مدارس آسيـا الصغرى، لأن فيثاغورس وأكسينوفان هما صاحبا الفضل الأكبر فى تنبيه الأذهان إلى مباحث الفلسفة فى إيليـا وصقلية بعد هجرتهما من وطنهـما الأول. وقد نبغ هنالك كثيـر من أصحاب الآراء الفلسـفية أجدرهم بالذكـر فى هذا المقام ثلاثة: هم بارمنيد وزيتون وأمـبدوقليس، لأنهم يمثلون كل ناحية من نـواحى التفكير فى مدارس إيطاليا الجنوبية.

ولباب مذهب بارمنيـد أنه لا وجود لغير الواحد، وإن كل وجـود غيره وكل ما نراه من العدد والتغير إنما هو وهم الحس وخداع الظواهر. . فلا تغيير ولا أضداد كمـا يقول هيرقليطس. وإنما هى حالة واحـدة نراها على درجات ونحسبـها لذلك من قبيل الأضداد. فالبـرد قلة فى درجة الحرارة والظلام قلة فى درجـة الإضاءة والمرض قلة فى درجـة الصحـة، وقس على ذلك جمـيع الأضداد من هذا القبيل.

قال مدللا على بطلان التـغيير: «كيف يتـأتى أن الشىء الذى هو كائن يفقد الكينونة؟ وكيف يتـأتى أن يكون بعد أن لم يكن؟ فإذا حدث هذا الشىء فلابد قبل حدوثـه من زمن لم يكن فيه. وكذلك يقال إذا كان حـدوثه سيبدأ فى المسـتقـبل وأين تبـحث عن أصل الشىء الذى هو كـائن؟ وكيف ومـتى يحدث نماؤه؟ لا أرى لك أن تقول أنه يأتـى من لا شىء فإن اللاشىء لا يقبل التعبير ولا يقبل التفكير.

ومـا هى يا ترى تلك الضرورة الـتى توجده فى زمن من الأزمـان دون سائر الأزمان؟ كذلك يمنعك النظر الـثاقب أن تصدق أن الشىء الذى هو كائن يموت إلى جانبه كائن آخر».

ومعـنى هذا أنه لا شىء يأتى من لا شىء. فالعـالم قديم لم يـحدث، والواحـد الذى يؤمن به بارمنيد ليـس خالقـا للكون بل هو حقـيقـة الكون. ويقول فى وصفه أنه كـرة محيطة لا تقبل التجزئة، لأن كـلها حاضر فى كل جزء منها.

ويعتبر زيتون الإيلى أبرع المدافعين عن مذهب أستاذه بارمنيد، فإنه أبدع تلك النقـائض لتى رد بها على أنصـار هيرقليطس وفـيثاغـورس حين أنكروا الوحدة وسخـروا من مذهب بارمنيد بتلفيق الأحـاجى والأمائيل. فأبدع لهم تلك النقائض الـبارعة التى يثـبت بها الإحالة والخلف علـى القائلين بالتغـير

والكثرة. ونجتزئ منها بعض الأمثلة للدلالة على طريقة هذه المدرسة فى إثبات الوحدة الكونية ونفى التعديد والتغيير.

قال مـا فحواه: إن الشيء الكثيـر إذا كانت كثـرته بالامتداد فهـو قابل للقسمة إلى شرطين، وكل شطر منهما قابل للقسمة إلى شطرين. وهكذا إلى غير نهـاية. وهو مستحيل لأن المحدود الذى تنـتهى إليه لا يقبل القسمـة فهو مستحيل أيضًا. لأنه ذو امتداد، وكل ذى امتداد ينقسم إلى نصفين.

ويقال فـى الكثرة بالعـدد ما يقـال فى الكثرة بالامـتداد. فـإن الأعداد منفصل بعضها عن بعض، وبين كل منفصلين مـسافة تقبل القسمة، ولا تزال تقبلها على النحو الذى تقدم فى كثرة الامتداد.

وهو يبطل الحركة لأن التغـيير إنما يقوم عليها، ويبـدع لذلك نقيضة من قبـيل نقائض الكثـرة فيقـول: إن الحركة لا تنتـهى إلى غايتـها إلا إذا قطعت نصف المسـافة ثم نصف النصف إلـى غيـر نهاية. ومن التناقض أن يقـال أن حركـة تنتهى بلا نهـاية.. ويضرب مثـلا آخر بالمسابقـة بين عداء وسلحـفاة فيـقول: إذا سـبقـت السلحفـاة العداء بأقـصر مـسافـة فإن العـداء لا يلحق بالسلحفاة إلا إذا عـبر المسافة التى بينهما وفى هذه الأثناء تكون الـسلحفاة قد سبـقته إلى مسـافة أخرى لابد له من عـبورها، وهكذا إلى غير انتـهاء، وهو محال.

وأكثر هذه النقائض من قبيل المغالطات. لأنه يعتبر فيها الزمان ولا يعتبر المكان أو يعتبر فـيها المكان ولا يعتبر الزمـان. ولكن كلامه عن الجزء الذى لا يتـجزأ ينطوى علـى معنى صـحيح يدل عـلى ضلال الحس فى تصـور المادة والفضاء ولعل أفـضل الحلول لهذه المناقضة هو حل الأفـلاطونيين الذين قالوا أن الجسم يتـجزأ إلى أن ينمحق فيـصير هيولى أى مادة أوليـة، والمادة الأولية هى الذرة المنحلة.

ولم يأت زينون الإيلى فى باب الإلهيات برأى يزيد على رأى أستاذه، فهو يؤمن بالواحد الذى لا يتعدد، ولا يجعله إلها خالقا منشئا للعالم من العدم، لأنه لا يؤمن بالتغيير ولا بحدوث شىء من لا شىء!

أما أمبدوقليس فهو أقرب الفلاسفة إلى زمرة الشعراء، وكان ينظم فلسفته ويعتمد فيها على الخيال. فقد تخيل العالم كرة وقال إن الحب هو إله العالم والنزاع عدوه الراصد له على الدوام.

وكان أمبدوقليس يدعى الحلول ويزعم أنه مشتمل على روح إله، ويروى تلاميذه معجزات له تحسب من خوارق العادات، ويلتمسون منه البركة والرضوان كأنه من القديسين.

أما المدرسة الرواقية فقد أوشكت أن تكون نحلة دينية، لأنها امتازت بعلم كعلم اللاهوت فى المسيحية أو علم الكلام فى الإسلام، وهى لاحقة لمدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو فى تاريخ الظهور، ولكننا نفردها على حدة قبل الكتابة عن المدرسة الأثينية، لأنها نمط مستقل فى باحث الفلسفة على الإجمال، وبينها وبين المدرسة الأثينية فرق واضح فى الطبيعة والموضوع.

وأشهر فلاسفتها المستجمعين لنواحى التفكير فيها ثلاثة هم زينون وكليانتاس وشريسبس، ولكهم متقاربون فى تاريخ الميلاد.

فزينون ولد سنة ٣٣٦ قبل الميلاد فى قبرص وعاش وعلم فى أثينا، وخلاصة رأيه أن الموجود هو الفاعل أو المنفعل، وأن أصل الموجودات كلها النار وأصل النار الهيولى والله هو العقل الفاعل والهيولى هى المادة المنفعلة، ولكنه لا يؤمن بوجود لشىء غير مادى. فالله عنده «أثير» لطيف وروى عنه جالينوس أنه يعارض أفلاطون لأن أفلاطون كان يرى أن الله جوهر منزه عن المادة الجسدية وزينون يقول أنه جوهر ذو مادة Soma وأن الكون كله هو قوام جوهر الإله، وأن الإله يتخلل أجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا،

وأن الناموس Nomos وهو بعبارة أخرى مرادف للعقل الحق Orthos Logos أو الكلمة الحقة - هو والإله زيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون، وكان زينون يرى للكواكب والأيام صفة إلهية ويعتقد أن الفلك ينتهى بالحريق وتستكن فى ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرها، فتعود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره، ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام.

ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس، فكلهما وما شابههما من الأسماء تدل على وجود واحد، وقد كان هذا الموجود الواحد متفردا لا شريك له فشاء أن يخلق الدنيا فأصبح هواء، وأصبح الهواء ماء، وجرت فى الماء مادة الخلق أو كلمة الخلق Spermatikos Logos كما تجرى مادة التوليد من الأحياء، فبرزت منها مبادئ الأشياء وهى النار والماء والهواء والتراب، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادئ على التدريج.

وتعريف القدر عند زينون أنه القوة التى تحرك الهيولى، وهى قوة عاقلة.. لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يتجرد منه، ولا شيء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل لأنه عظيم.

ويفسر زينون تعدد الآلهة فى معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله فى مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال، ولكن هذه التشبيهات إن هى إلا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية. فلما قال الأقدمون أن أورانوس إله السماء خصاه ابنه كرونوس إله زحل - كانوا يفهمون ن ذلك أن كوكب زحل هو مناط النظام فى السيارات وأنه قادر بذلك على تقسيم دورات الفلك وتقسيم الفصول والسنين. ومن هنا التشابه بين كلمة Kronos كرونوس إله زحل وكلمة كرونوس Chronos أى إله الزمان، كأنهم يقولون أن الزمن قد حد من حركات الأفلاك والسيارات.

ولكن زينون على بلوغه هذه المنزلة من التوحيد وإنكار التشبيهات لم

يخلص من اللوثة المادية فى تصور الله ولا فى تصور الروح. فالروح عنده هى وهر غازى حار، وهى مركبة من النفس (سيكى Psyche) بمعنى التنفس ومن العقل Varros وهو من عنصر الأثير، ومن نقائض المذهب الرواقى أنه يأبى إقامة الهياكل لله مع هذه المادية فيه، لأنها أقل من أن تبغ مرتقاه.

ولا ينكر زينون كهانة الكهان. بل يقول أنها لازمة عقلا لأنه لا غنى عن الكهانة مع وجود العناية التى تتكفل بالسبق إلى التقدير والهداية.

وقد ولد كليانتس Cleanthes بعد زينون بسنوات. لأنه ولد على الأرجح سنة ٣٣١ ق.م، وكان مولده بآسيا الصغرى.

ورأيه أن الله روح يسرى فى جميع أجزاء الكون، وأن الروح الإنسانية قبس من ذلك الروح، وأن الشمس هى مناط النظام فى الكون، لأنها تنشئ الليل والنهار وتقلب الفصول والسنين، وهو يقول بالدورات الكونية كما يقول زينون. فمن النار تبدأ جميع الأشياء وإلى النار تعود.

وقد كان إمام اللاهوتيين بين فلاسفة الرواقيين، لأنه أول من أسهب فى إقامة الأدلة على وجود الله، ومن براهينه اللاهوتية أن اختلاف المزايا والطبائع يستدعى تمييز بعضها على بعض، وأن يكون بعضها أفضل من الجميع.. فالحصان مثلا أفضل من السلحفاة، والثور أفضل من الحمار، والأسد أفضل من الثور، وليس على الأرض ما هو أفضل من الإنسان ولكنه مع ذلك لا يرتقى إلى المنزلة الفضلى ولا يسلم من الضعف والشر والحماقة. فليس هو مثال الكمال بين الموجودات، ولابد أن يكون الموجود الحى الكامل شيئًا غير الإنسان، وأن يكون موجودا مستكملا للفضائل منزها عن كل سوء، ومثل هذا الموجود يطابق صفات الإله، فالإله إذن موجود.

ومن أسباب الإيمان بالله عند كليانتس أربعة أسباب يخصها بالتنويه: وهى الوحى الذى يكشف الغيب، وعظمة الخيرات التى تجود بها الأرض

والسماء، ورهبة النفس أمام أسرار الوجـود وظواهره الرائعة كالبروق والرعود والعواصف والأهوال والأوبئة والصواعق والبراكين، وهذا النظام المحكم الذى يبدو للـنظر فى حركات الأجـرام السمـاوية ومواعـيد الأفلاك والـبروج، مما يرفض العقل حدوثه بالمصادفة والاتفاق.

وكانـت لهذا الفـيلسوف صلوات يخـاطب بها الله كـأحسن مـا تكون الصلاة، ولكنه يذكر الله باسم زيوس كما كان معروفا بين الإغريق.

وولد شريسيس Chrisippus ثالث هؤلاء الفلاسـفة بعد كليـانتس بنحو خمـسين سنة، وكان مولده فى قليـقية ومـقر تعليمـه فى أثينا، وهو أوفرهم محصولا وإن لم يحفظ من كتبه غير شذرات.

وقد شغل باللاهوت الرواقى كـما شغل به كليانتس، ولا سـيما براهين وجود الله وبراهين عدله وحـكمته فى قضائه. . فـمن براهينه على وجود الله أن الكون أكبـر من أن يخلق للإنسان وحده. فوجـوده عبث إن لم يكن هناك إله أكبر من الإنسان.

ومن تلك البـراهين أنه «إذا كان هنـاك شىء يعجـز الإنسان عن صنعـه فالذى يـصنع ذلك الشىء أعظم من الإنسان. وأن الإنسـان يعجـز عن خلق الكون فـلابد أن يكون القادر على خلقـه أعظم منه. وأى موجـود أعظم من الإنسان غير الله؟».

ويرد على من يتخذون الشر دليلا على بطلان العنايـة الإلهية بأدلة كثيرة يقول منهـا فى كتابه عن العناية «إنه ليس أضل من أولئك الذين يتـخيلون أن الخيـر قابل للوجود بغيـر وجود الشر معـه. لأن الخير والشر ضـدان يستلزم وجود أحـدهما وجود الآخـر. . فكيف يتأتى للعـدل معنى من المعانى بغـير الأخطاء والإساءات؟ ومـا هو العدل إن لم يكن هو منع الظلم؟ ومـاذا يفهم إنسان من مـعنى الشجاعة إلا أنهـا نقيض الجبن؟ أو من معنى العفـة إلا أنها

نقيض الشراهـة؟ وأين محل الحكمة إن لم تكن هناك حمـاقة؟ وما بال هؤلاء القوم فى حـماقـتهم يطلبـون أن يكون هناك حق ولا يكون هناك باطل؟ وقل مثل ذلك فى الخير والشر والراحة والـتعب والسرور والألم. فإن هذه الأشياء أخذ بعضها برقاب بعض كما قال أفـلاطون فإن نزعت إحداها نزع معها فريته لا محالة».

ويعلل الفـيلسـوف بعض الآلام بأنها عـقـوبة من الله، أو أخذ الجـزء لإعطاء الكل، وحرمان للفرد لإغداق الخـير على المجموع، ويقول أن زيوس المخلص المنعم مصدر العدل والنظام والسـلام يتنزه عن فعل ما لا يحسن ولا يجوز ولكنه يصنع فـى الكون كما تصنع الدولة التى تضـيق بسكانها فتـبعث بفريق منهم إلى المستعمرات النائية أو إلى ميادين القتال.

ويجيز شريسبس وجود آلهـة تتمثل فى القوى الكونية دون الإله الأعظم زيوس. ولكنه يعتبرها من أهل الفناء ولا يعفيهـا من قضاء القيامة التى تشمل الموجودات فى نهاية كل دورة كونية، فإن هذه الدورات تأتى على كل موجود غير الإله الباقى وهو مصدر النار ومعيدهـا إلى التركيب ليستخرج منها أجزاء كون جديد.

وتأتى مـدرسة أبيقـور (٣٤٢ - ٢٧٠) فى الموضع الوسط بين مـدرسة الرواقيين ومـدرسة أثينا الكبرى: ونعـنى منها على الخصـوص مذهب أرسطو الذى اشتهر بمذهب المشائين. . فكان أبيقور وتـلاميذهُ يعظمون الآلهة كتعظيم الرواقيين، وينسبـون الإله والروح إلى مادة لطيفة كـالأثير أو أرق من الأثير، ولكنهم يخالفون الرواقـيين فى الإيمان بالقيامة الإلهيـة ويقولون أن الآلهة فى رفيقها الأعلى سعيدة خالدة، وأن السعيد الخالد لا يكرث نفسه بأمره ولا بأمر غيره، ولكنهم يقيمون فوق الكون Metakosmia فى نعيم وفرح صاف مقيم، لا يعرفون تعبا ولا يتـعبون أحدا، وإنما تجرى الأمور عفو السجـية بغير تقدير ولا حاجة إلى التقدير.

وهناك مدرسة أخرى غير مدرسة أبيقور ومدرسة زينون لها شأنها فى التفكير ولكن لا شأن لها فى العقيدة. لأنها لا تنقض فيها ولا تبرم، وهى مدرسة الشكوكين أو اللاادريين، فلا موضع لها فى هذا المقام.

هذه المذاهب كلها كان لها تأثير ملحوظ فى تفكير المفكرين بعدها فى المسائل الإلهية، فما من مذهب منها إلا وقد أعقب فكرة قام عليها رأى فيلسوف متأخر أو دخلت فى رأيه على نحو من الأنحاء.

إلا أن الإجماع متفق على أن المدرسة الأثينية - مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو - هى أعظم مدارس الفلسفة بين الإغريق على التعميم. سواء منها ما نشأ قبل الميلاد وما نشأ بعده، وسواء منها ما نشأ فى آسيا الصغرى أو إيطاليا الجنوبية أو مدينة الإسكندرية.

ورأس المدرسة الأثينية هو سقرط (٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م) أستاذ أفلاطون، وأسبق القائلين فى القدم برد العقيدة والعبادة إلى الضمير.

وقد كان سقراط من أصحاب الهواتف الخفية، وكان يستمع إلى هاتف يخيل إليه أنه يلازمه ويوحى إليه وينفخ فى روعه بما يلهمه الرشد والصواب.

ولكنه لم ينصرف إلى مباحث ما وراء الطبيعة كانصرافه إلى مباحث الأخلاق والسياسة وقواعد المعرفة والثقافة النفسية. فكان قصارى ما أثر عنه من الآراء فى مسائل العقيدة أنه يؤمن بخلود الروح وسلامتها من الفساد مع الجسد بعد الموت، وأنها ترجع إلى معدنها الأول من الصفاء المنزه عن التجسيد والتركيب، وكان يتكلم عن الآلهة تارة وعن الإله تارة أخرى. إلا أنه ينزهها جميعا عن تلك الخلائق البشرية التى تعزى إليها فى قصص الرواة وأساطير الشعراء ويؤمن برعايتها للبشر وعكوفها على الخير والسعادة، وينعى على الذين يحسبون العبادة قائمة على القرابين والضحايا وذبائح الماشية، ولا يرى لإنسان عبادة مقبولة إذا خلا من خلوص النية وصفاء الضمير.

ولعله قد أسس قواعد البحث والمنطق بتعويده تلاميذه أن يستخلصوا الحدود والتعريفات من المشاهدات والمحسوسات، وأن يجعلوا هذه الحدود أساسا للقياس وترتيب النتائج من المقدمات.

ولا شك أن هذه الحدود قد وجهت المفكرين بعده إلى الفصل بين خصائص الأشياء ومقوماتها، وكان أرسطو يتوخاها فى تقسيماته المنطقية وتطبيقاته الفلسفية، وبها أقام ذلك السد الحائل بين جميع خصائص العقل وجميع خصائص المادة الأولية أو الهيولى. فكان وضع الحد عنده أهم من تقرير الجوامع والمقاربات.

وخلفه تلميذه أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) فتبعه فى مباحث الأخلاق والسياسة والثقافة النفسية، وتبع فيثاغورس فى العقائد الروحية ومزج الفلسفة بالرياضة والدين. ولو لم يكن أفلاطون وثنى البيئة لكان أرفع الإلهيين تنزيها للوحدانية. ولكن البيئة الوثنية غلبته على تفكيره بحكم العادة وتواتر المحسوسات، فأدخل فى عقيدته أربابا وأنصاف أرباب لا محل لها فى ديانات التوحيد، ولا سيما عند الفلاسفة الموحدين.

فالوجود فى مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان: طبقة العقل المطلق وطبقة المادة الأولية أو الهيولى Hyle والقدرة كلها من العقل المطلق، والعجز كله من الهيولى. وبين ذلك كائنات على درجات تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولى.

وهذه الكائنات المتوسطة بعضها أرباب وبعضها أنصاف أرباب وبعضها نفوس بشرية. وقد ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة ليعلل بها ما فى العالم من شر ونقص وألم. فإن العقل المطلق كمال لا يحده الزمان والمكان ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة. فهذه الأرباب الوسطى هى التى تولت الخلق لتوسطها بين الإله القادر والهيولى العاجزة. . فجاء النقص والشر والألم من هذا التوسط بين الطرفين.

وكل هذه المظاهر المادية بطلان وخداع. لأنها تتغير وتتلون وتتراءى للحس على أشكال وأوضاع لا تصمد على حال.. وإنما الصمود والدوام للعقل المجرد دون غيره. وفى العقل المجرد تستقر الموجودات «الصحائح» أو المثل كما سميت فى الكتب العربية، وهى كالعقل المجرد خالدة دائمة لا تقبل النقص ولا يعرض لها الفساد.

هذه الصحائح هى المثل العليل لكل موجود يتلبس بالمادة أو الهيولى. فكل شجرة - مثلا - فيها صفة أو صفات ناقصة من نعوت الشجرية. فأين هى الشجرة التى لا نقص فيها؟ هى فى عقل الله منذ القدم. وكل ما تلبس بالمادة من خصائص الشجرية فهو محاكاة لذلك المثل الأعلى.

وبقاء هذه الموجودات هو أيضًا محاكاة لبقاء الله.. فبقاء الله بقاء أبدى لا أول له ولا آخر ولا تحول فيه ولا تقلب، ولا تعرض له الزيادة ولا النقصان.

أما بقاء هذه الموجودات فهو بقاء فى الزمان، والزمان مخلوق من حركة الأفلاك، فهو مقياس لبقاء المخلوقات وليس بمقياس لبقاء الخالق. وإنما شاء الله بجوده ورحمته أن يعطى الموجودات نصيبها من البقاء فأعطاها الزمان، وهو محاكاة للأبد السرمدى الذى لا ابتداء له ولا انتهاء كما أن الموجودات المحسوسة محاكاة للموجودات المثالية التى يعقلها الله وتخرجها أنصاف الأرباب إلى حيز الوجود، فتنقص لأن أنصاف الأرباب لا تعقلها كما يعقلها الله، ولأن التلبس بالمادة يحيطها بالحدود وينضح عليها من عوامل الفساد.

والعقل البشرى يعلو فيدرك الحقائق المجردة، ويهبط فيدرك المحسوسات بالتجربة والمشاهدة، ومن أمثلة الحقائق التى تدرك بغير تجربة حسية حقائق الرياضة العليا. فإن الله مهندس، وأحكامه هى الهندسة القائمة على نسب الأعداد المجردة، ومعرفتها معرفة عقلية يدركها الإنسان بصفاء القريحة، وربما كانت هذه النسب أو الأعداد مرادفة للمثل العليا أو للصحائح فى فلسفة

أفلاطون، ولا سيما ما ذكره عنها فى أيامه الأخيرة، ورجع به إلى فيثاغورس.

وقد رجع أفلاطون إلى فيثاغورس فى القول بتناسخ الأرواح وتجدد الآجال على حسب الحسنات والسيئات.. فالنفس البشرية إذا استلهمت القدرة من العقل الإلهى تغلبت على عجز المادة والجسد وصعدت إلى معدنها الأول، فخلصت إلى عالم البقاء الذى لا يشوبه فساد.. ولكنها إذا رزحت بثقل المادة واستسلمت لعجزها ونسيت قدرتها على مكافحتها هبطت من جسد إلى جسد أحقر منه وأدنى فكانت فى جسم حيوان بعد أن كانت فى جسم إنسان، وانحدرت من حيوان كريم إلى حشرة لئيمة، حتى تفيق من غشيتها وتستأنف فى عالم العقل المجرد سيرتها الأولى.

فالهيولى مقاومة العقل المجرد وليست موجدة بمشيئته من العدم. ولعل أفلاطون لم يحاول أن يردها إلى العدم، أو يقول بوجودها من العدم، لأنها كانت حقيقة واقعة فى رأى سابقيه من فلاسفة اليونان ولأنها ساعدته على تعليل النقص والشر والألم.. فوقف بها بين الكمال المطلق الذى ينبغى للإله الأعظم، وبين عوارض القصور التى تقترن بغيره من الموجودات.

وقام بعد أفلاطون تلميذه العظيم «أرسطو» فتوسع فيما بعد الطبيعة توسعا لم يسبق إليه بين فلاسفة الأوائل، ووضع للجدل معياره الذى سمى بعد ذلك بعلم المنطق، وفصل بين الحدود فبالغ أحيانا فى الفصل بينها، ولكنه أقام القواعد الأولى على أساس صحيح.

والله عند أرسطو هو العلة الأولى أو المحرك الأول، فلابد لهذه المتحركات من محرك، ولابد للمحرك من محرك آخر متقدم عليه، وهكذا حتى ينتهى العقل إلى محرك بذاته، أو محرك لا يتحرك. لأن العقل لا يقبل التسلسل فى الماضى إلى غير نهاية.. وهذا المحرك الذى لا يتحرك لابد أن يكون سرمدا لا أول له ولا آخر، وأن يكون كاملا منزها عن النقص

والتركيب والتعدد، وأن يكون مستغنيا بوجوده عن كل موجود. وهذا المحرك الأول سابق للعالم فى وجوده سبق العلة لا سبق الزمان. كما تسبق المقدمات نتائجها فى العقل ولكنها لا تسبقها فى الترتيب الزمنى. لأن الزمان حركة العالم، فهو لا يسبقه. أو كما قال «لا يخلق العالم فى زمان».

وعلى هذا يقول أرسطو يقدم العالم على سبيل الترجيح الذى يقارب اليقين. إلا أنه يقرر فى كتاب «الجدل» أن قدم العالم مسألة لا تثبت بالبرهان.

وإجمال براهينه فى هذه القضية أن أحداث العالم يستلزم تغييرا فى رزادة الله والله منزه عن الغير. فهو إذا أحدث العالم فإنما يحدثه ليبقى جل جلاله كما كان، أو يحدثه لما هو أفضل، أو يحدثه لما هو مفضول، وكل هذه الفروض بعيدة عما يتصوره أرسطو فى حق الله. فإذا حدث العالم وبقى الله كما كان فذاك عبث والله منزه عن العبث، وإذا أحدثه ليصبح أفضل مما كان فلا محل للزيادة على كماله، وإذا أحدثه ليصبح مفضولا فذلك نقص يتنزه عنه الكمال.

وإذا كانت إرادة الله قديمة لا تتغير - فوجود العالم ينبغى أن يكون قديما كإرادة الله لأن إرادة الله هى علة وجود العالم. وليست هذه العلة مفتقرة إلى سبب خارج عنها، فلا موجب إذن لتأخر المعلول عن علته، أو لتأخر الموجودات عن سببها الذى لا سبب لها غيره.

فالإنسان يجوز أن يريد اليوم شيئًا ثم يتأخر إنجازه، لنقص الوسيلة أو لعارض طارئ أو لعدول عن الإرادة. وكل ذلك ممتنع فى حق الله.

وقد أفرط أرسطو فى هذا القياس حتى قال إن الله جل وعلا لا يعلم الموجودات لأنها أقل من أن يعلمها.

وإنما يعقل الله أفضل المعقولات، وليس أفضل من ذاته فهو يعقل ذاته، وهو هو العاقل والعقل والمعقول. وذلك أفضل ما يكون.

والعقل بالنسبة إلى الله يخالف العقل بالنسبة إلى غيره من الموجودات الفانية، فإن الإنسان يعقل الجزئيات بعد وقوعها ثم يعقل الكليات بعد استقصاء الجزئيات، ويلزمه ذلك لأنه يعلم بعد جهل ويتوقف علمه على المعلوم، وليس علم الله متوقفا على ما عداه.

وكل صفة من صفات الله فهى تتعلق به ولا تتعلق بغيره، وهى قائمة به ولا تقوم على غيره، ومن هذه الصفات الإرادة والعلم كما تقدم، ومنها الكرم والرحمة والخير والعدل والحكمة وسائر صفات الكمال.

فالله لا يريد العالم لأنه لا يحتاج إليه.. ولكن العالم يريد الله، لأنه متوقف عليه.. ويسأل السائل: إذن كيف يكون هذا التوقف إن لم يكن بعمل من أعمال المشيئة الإلهية فى الجملة والتفصيل؟.. وجواب أرسطو على هذا السؤال أنه يكون بسعى الناقص إلى طلب الكمال، أو بسعى الموجودات إلى التشبه بعلتها الأولى. فالله أعطاها العقل، والعقل يبعث فيها الشوق إلى مصدرها الأول. فتتحرك وتعلو بالحركة، أو تكسب فى كل حركة صورة أرفع من صورتها وحظا من الكمال أرفع من حظها، تقربا إلى الصورة التى لا تشبها شائبة من عجز المادة أو الهيولى.. وهى الصورة السرمدية الكاملة: صورة الله.

ولا يفهم معنى هذا الارتفاع إلا إذا فهم معنى الصورة فى مذهب أرسطو.. فالصورة فى مذهبه هى حقيقة الشىء وماهيته التى يقوم بها وجوده، وليست هى شكله البادى للعين أو تمثاله الملموس باليدين.. فصورة العصفور هى حقيقته التى يكون بها عصفورا، ولا يكون غير ذلك من الطيور أو الأحياء على العموم. وصورة الدرهم هى جوهره الذى يميزه من سائر قطع الفضة وسائر قطع النقد ويجعله درهما وتزول عنه «الدرهمية» إذا زال. ولا يخلو موجود فى العلام من الصورة.. فكل موجود فهو صورة ومادة أو «هيولى».

وتترقى الموجودات فى شرف الوجود كلما عظم نصيبها من الصورة وقل نصيبها من الـهيولى. . فالموجودات الخسيسة يوشك أن تكـون هيولى محضا خاليـة من كل صورة. فلا فـرق فيهـا بين جزء وجزء ولا بين فـرد وآخر من الجنس نفسه.

وكلمـا ارتقت فى سلم الوجود زاد نصـيبـها من الصـورة المميـزة وقل نصيبها من الـهيولى المتشابهة. وربما أصبحت صـورة جسم مادة لجسم آخر. كالورق الذى هو صـورة مميزة لبعض المـوجودات وهو فى الوقت نفسـه مادة للكتاب.

وأعلى الموجـودات على هذا القـياس هـو الله، لأنه صورة مـحض لا تشوبه المادة، ومعنى مجرد لا يقوم فى جسد. . وأخس الموجودات جميعا هو الهـيولى، وهى لم تـوجد قط منعـزلة عن صـورة من الصور، وإذا وجـدت منعزلة عن الصورة فهى وجود بالقوة أى وجود لم يتحقق بالفعل ولا يزال فى انتظار التحقـيق. . والحركة هى التى تحققـه. . والحركة هى التى ترتقى به من صورة إلى صورة.

ولما كان الله هو المحـرك الأول كمـا تقدم فهـو موجد العـالم على هذا الاعتبار، وهو قبلته التى يرتقى إليها. . شوقا إلى مصدره منها.

وهذه هى الصلة كلهـا بين الله والعالم: فلا ينسـب إلى الله فى مذهب أرسطو أنه يهتم بالعالـم أو يفكر فيه، لأن تفكير فيـما دونه أو تفكير لا يليق بكماله. ولا يعقل الله جل وعلا إلا أشرف معقول، وهو ذاته دون سواها.

وهذا هو الخطأ الذى جاء من الغلو فى مـذهب أرسطو: تناوله الحكماء الدينيون فلم ينكروا المقدمات ولكنهم أنكروا النتيجة التى أدى إليها أرسطو من مـقدمـاته. فقـالوا: أن الله لا يعقل إلا أشـرف معـقول. نعم لا جـدال في ذلك. . ولكن أشرف مـعقول هو المعـقول الذى يتحـقق به كمال صـفاته من

القدرة والعلم والرحمة والجود. وإنما يتحقق جوده بإيجاد المخلوقات، ويتحقق علمه بنفى الجهل بها، وتتحقق رحمته برعايتها وتهذيبها. أما كيف يكون ذلك فالبحث فيه هو علة الخطأ فى جميع تلك الفروض والأقيسة. لأنه سبحانه وتعالى جل عن الشبيه، فليس كمثله شىء، وليست أعمالنا كأعماله على فرض من الفروض.

ويقول أرسطو بوجود الروح ولكنه لا يقول ببقاء الروح الفردية بعد الموت، فالروح من عالم العقل والعقل واحد فى جميع الأفراد، وهم إذا اختلفوا بالأذواق الجسدية لم يختلفوا بالمدركات العقلية، فلا اختلاف بين إنسانين فى إدراك الحقائق المجردة كالرياضة والمنطق وما جرى مجراها، ومؤدى هذا عند أرسطو أن العقل المجرد لا فردية فيه، وأن الروح تعود إلى العقل العام بعد فراقها للجسد. فلا فردية لها بعد الموت، ولكنها لا تفنى ولا تقبل الفناء.

ذلك أوجز تلخيص مستطاع لمذاهب المدرسة الأثينية فى الحكمة الإلهية. وقد توخينا فيه ما يكفى لتقدير خطوتها فى هذه المرحلة الإنسانية الخالدة، فليس يدخل فى موضوع هذا الكتاب تلخيص آرائها فى غير فكرة الإيمان بالله.

ولعلنا نقدر هذه الخطوة حق قدرها إذا قلنا أن المدرسة الأثينية عرضت على الفهم ما أخذته من إيمان الأولين. فنقلت البناء من أساس الإيمان إلى أساس البحث والقياس وأثر موقفها من المادة كان كموقف التسليم «بالأمر الواقع» كما يقولون فى لغة السياسة. لأنها لم تقل بقدم العالم إنكارا لوجود العقل المستقل كما أنكره الماديون فى العصور التالية، ولكنها قالت بقدم العالم رأيا لأنها وجدته ماثلا أمامها حسا، فلم تستطع أن تقاوم الحس فى الماضى كما لم تستطع أن تقاومه فى الحال.

المسيحية

لما ولد السيد المسيح عليه السلام - والأرجح أنه ولد قبل التاريخ المشهور بأربع سنوات - كان كل ما الشرق ينبئ برسالة مرتقبة واعتقاد جديد.

كان اليهود يترقبون المسيح المنتظر على رأس الألف الخامسة للخليقة، وهى عندهم مبدأ التقويم. لأن الاعتقاد العام كما قدمنا فى تاريخ فارس وما بين النهرين كان يتجه إلى انتظار الخلاص فى مطلع كل ألف سنة على يد رسول من السماء.

فجاش الأردن وما حوله بدعوة يحيى بن زكريا أو يوحنا المغتسل المشهور بالمعمدان. وراح هذا النبى يدعوهم إلى التوبة والاغتسال من الذنوب، ويرمز إلى التطهر من الدنس بالتطهر فى بحر الأردن على يديه، ويبشرهم أو ينذرهم بقرب «ملكوت الله» أو ملكوت السماء. وهو الملكوت الموعود منذ قرون.

وكان اليهود قد فهموا «ملكوت الله» على معنى غير الذى فهموه وتوارثوه من أيام السبى وزوال مملكة داود وسليمان.

فقد كانوا ينتظرون ملكا «مسيحا» من قبيل ملوكهم الذين كانوا يمسحونهم بالزيت المقدس ويسمونهم من أجل ذلك بمسحاء الرب أو المسحاء.

وكانوا يترقبون رجعة الدولة على يد فاتح ظافر من أبناء داود يجرد الكتائب ويجتاح القلاع والدساكر، ويقمع أعداءهم بالنار والحديد.

وتجدد رجاؤهم فى مسيح من هذا القبيل بعد سقوط أعدائهم الأقوياء وذهاب دولة البابليين والمصريين. فلما تطاول الزمن ووقعت بلادهم فى قبضة الدولة الرومانية - وهى فى قوتها وعجز اليهود عن مقاومتها لا قل عن الدولتين الذاهبتي - يئسوا من الخلاص على أيدى الفاتحين الظافرين وتحولوا إلى الرجاء فى قيام مسيح غير مسحاء العروش والتيجان. فترقبوه مسيحا فى

عالم الروح، وعلم الصالحون منهم أن الخلاص المنتظر إنما هو خلاص النفوس والضمائر بالتوبة والتطهير.

وكان أنبياؤهم قد بشروا بذلك المسيح قبل عصر الميلاد ببضعة قرون، فإذا هم يتدرجون من وصفه بالقوة والبأس إلى وصفه بالرحمة والحنان، ويتمثلونه وديعا رضيا يتجافى صهوات الخيل ويمتطى فى موكبه حمارا ابن أتان.

هذا فى نطاق الديانة الإسرائيلية..

أما فى نطاق البحث والحكمة فإن الفلسفة كانت فى ذلك العصر قد أوفت على غايتها، وأطلعت أعظم أعلامها وأكبر مدارسها. وشاعت فى البلاد الفينيقية على الخصوص.. لأن هذه البلاد كانت منشأ الرواقيين السابقين وكانت على اتصال دائم بآسيا الصغرى من جهة وبالإسكندرية من جهة أخرى، وهى يومئذ قبلة الفلاسفة والحكماء.

ومن هؤلاء الفلاسفة من بشر بالكلمة الإلهية وقال إن هذه الكلمة - ويعنى بها العقل الإلهى - هى مبعث كل حركة ومصدر كل وجود. ومنهم من قال أن الحب هو أصل جميع الموجودات ومساك جميع الأكوان، ومنهم من وعظ بالنسك والعفة وأوصى بالشفقة على الإنسان والحيوان وحرم ذبحه وزعم له روحا كانت تعقل فى حين مضى وستعود إلى العقل بعد حين.

وليس أدل على تهيؤ الجو للرسالة الجديدة من التمهيد لها فى نطاق الفلسفة ونطاق الديانة فى وقت واحد.

فكانت دعوة «يوحنا المعمدان» تقابلها دعوة فيلون الفيلسوف الإلهى الذى ولد بالإسكندرية قبل مولد السيد المسيح بنحو عشرين سنة، وكان فيلون يجمع حكمة العصر من جميع أطرافها، لأنه كان يهوديا محيطا بثقافة قومه وفيلسوفا محيطا بمذاهب الفلسفة اليونانية، ووطنيا مصريا محيطا بالحكمة

الدينية التى نبعت من معين التاريخ المصرى القديم وامتزجت بالعقائد السرية الأخرى فى بلاد الرومان واليونان وآسيا الصغرى، وأهمها عقيدة إيزيس وعقيدة أوزيريس سرابيس التى تأسست بالإسكندرية وتفرعت فى أثينا وبومبى وروما وبعض الموانئ الآسيوية، وكانت لهذه الديانة مراسم خفية يترقى فيها المريد على أيدى الكهان والرؤساء فى المحاريب السرية، وأول هذه المراسم صلاة القبول - التطهير - أو هى صلاة البعث التى يتقدم إليها المريد كأنه ميت بالروح يطلب الحياة بالروح أو يطلب الخلاص من أوهاق الجسد وخبائث الشهوات، ويعتبر بعدها من الواصلين إل حظيرة الرضوان.

وكان لتفسير هذه الرموز أثر فى تفسير فيلون لرموز الديانة الإسرائيلية، فتجاوز النصوص والمراسم إلى ما وراءها من الدلالات الروحية كما تكشفت له على أضواء الفلسفة اليونانية، ووصل من ثم إلى الإيمان بالعقل الإلهى أو الكلمة Logos كأنها «ذات» لها صفات الذات الإلهية.

بل وجد من وعاظ بنى إسرائيل أنفسهم قبيل عصر المسيح من مزج الأقاويل اليونانية بالعقيدة الإسرائيلية. فكان أصحاب الرؤى فى كتب أخنوخ يعلمون تلاميذهم أن الحكمة خلقت الإنسان من سبعة عناصر، فخلقت اللحم من التراب والدم من الندى والبصر من نور الشمس والعظام من الحجارة والذكاء من السحب والملائكة، والعروق من العشب والروح من أنفاس الله، وأن خلق الأرواح سابق لخلق الدنيا بأرضها وسمائها، لأنها عنصر خالد لا يزول.

فى هذا الجو المتطلع إلى الرسالة الروحية ولد السيد المسيح صلوات الله عليه.

وكان يستمع العظات من يوحنا المعمدان ويتقبل «العمادة» من يديه. فلما قتل يوحنا لم يرهبه مصرعه الأليم، ونهض بأمانة الدعوة بعده فى بلاد

الجليل ثم فى بيت المقدس، وفى الهيكل الأكبر معقل الأحبار والكهان وعاصمة «الدولة الدينية» فى بنى إسرائيل.

وكانت بشارته أعظم فتح فى عالم الروح، لأنها نقلت العبادة من المظاهر والمراسم إلى الحقائق الأبدية، أو نقلتها من عالم الحس إلى عالم الضمير.

فلم ينتظر ملكوت الله فى حادث من الحوادث الدنيوية الكبرى أو الصغرى. بل علم الناس أن ملكوت الله قائم فى ضمائرهم وموجود فى كل حقبة وكل مكان: «ولا يأتى على موعد مرتقب. ولا يقولون هو ذا هنا أو هو ذا هناك. لأن ملكوت الله فيكم».

ولم يشهد التاريخ قبل السيد المسيح رسولا رفع الضمير الإنسانى كما رفعه، ورد إليه العقيدة كلها كما ردها إليه.. فقد جعله كفؤا للعالم بأسره بل يزيد عليه. لأن من ربح العالم وفقد ضميره فهو مغبون فى هذه الصفقة الخاسرة. «وماذا ينفع الإنسان لو ربح لعالم كله وخسر نفسه، وماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه؟».

والطهر كل الطهر فى نقاء الضمير. فمناط الخير كله فيه ومرجع اليقين كله إليه: «فليس شىء من خارج الإنسان يدنسه. بل ما يخرج من الإنسان هو الذى يدنس الإنسان».

وهناك حياته وبقاؤه: «فليس حياته من أمواله..»، وهناك قوامه وطعامه: «فليس بالخبز وحده يحيا.. بل بكل كلمة من كلمات الله..».. و«الحياة أفضل من الطعام». وكان ينعى على القراء والعاكفين على التلاوات ومراسم العبادة فرط الولع بظواهر الأفعال دون حقائق الإيمان، ويقول لهم: «نقوا الكأس من داخلها» فظاهرها لا يضير ما فيها. وكان ينكر كل ما يراد به الظاهر ولا ينبعث من أعماق الوجدان. فلا إحسان عنده لمن يتراءى بالإحسان

لأنه تاجر أخذ ربحه فلا حق له عند الله: «احترزوا من صدقة تصنعونها أمام الناس. وإلا فلا أجر لكم عند أبيكم الذى فى السموات. وإذا بذلت الصدقة فلا تنفخ أمامك بالأبواق كما يفعل المراءون تفاخرا بين الناس. فالحق أقول لكم أنهم قد استوفوا أجرهم.. فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك.. فأبوك الذى يراك فى الخفاء يجزيك فى العلانية».

وكل شىء فى عالم الحس ينقاد لقوة الضمير: «فلو كان لكم إيمان كحبة خردل لأمرتم هذه الشجرة أن تخرج من منبتها وتنغرس فى ماء البحر فتطيع».

وعلى تبشيره بالرحمة والمحبة لم يكن ينكص عن الثورة فى عالم الروح. لأنها هى الثورة التى تستحق أن تثار: «جئت لألقى نارا فماذا على لو اضطرمت النار؟».

فجانب الضمير هو الجانب الذى وجهت إليه رسالة السيد المسيح، ورعاية الله لروح الإنسان هى الملاذ الذى رأى الناس منصرفين عنه فعاد بهم إليه.

وكانوا يؤمنون بالله الخالق وبالله الذى ينزل عليهم الشرائع ويحاسبهم على الطاعة والعصيان، ولكنهم سوا رعاية الله ولم يريدوا أن يحبوه كما أرادوا أن يطيعوه. فعلمهم أن ا محبة وأن أقرب الناس إلى الله من أحب الله وأحب خلق الله، ومنهم المطردون والعصاة، ولا يستحق غفرانه من لم يتعلم كيف يغفر للمسيئين إليه: «.. إن أخطأ إليك أخوك فوبخه، وإن تاب فاغفر له، وإن أخطأ إليك سبعا فى اليوم وتاب إليك سبعا فى اليوم، فاقبل توبته واغفر له».

وقد وجد عند بنى إسرائيل كفاية وفوق الكفاية من كلامهم عن إله الشرائع وإله الخلق وإله هذا الشعب من الشعوب دون سائر بنى الإنسان.

فذكرهم بالله الذى يرعاهم فوق رعاية الأب الرحيم، وعليهم أن يثقوا به فوق الثقة بسعيهم فى طلب المال والحيلة فى تحصيل المعاش، «أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس؟ انظروا إلى طيور السماء أنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن، وأبوكم السماوى يقوتها.. ألستم أنتم أحرى بالتفضيل عليها؟ من منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة؟.. تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو وهى لا تتعب ولا تغزل وسليمان فى ل مجده لا يلبس كواحدة فيها، فإن كل عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غدا فى التنور يلبسه الله ذلك اللباس أفليس أحرى أن يلبسكم أنتم يا قليلى الإيمان؟!».

وعلى هذا الوجه ينبغى أن يفهم قول السيد المسيح حين قال: «ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله» وحين جاءوه بالزانية قال لهم: «من لم يخطئ منكم فليرمها بحجر». فإنه لم يأت بإلغاء الشريعة ولا بإسقاط الجزاء. ولكنه نقل الإيمان بالله من الحرف إلى المعنى، ومن القشور إلى اللباب، ومن ظواهر الرياء إلى حقائق الخير الذى لا رقابة عليه لغير الضمير. ورأى عند اليهود ما هو حسبهم من شرائع الأنبياء وشرائع الرومان فقال لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله ﷻ، وذكرهم بجانب الرحمة والإحسان وقد نسوه، ولم يذكروا غير جانب الغضب والقصاص.

وقد أشار السيد المسيح إلى نفسه بتعريفات كثيرة رواها عنه كتاب الأناجيل، فكان إذا تكلم عن نفسه قال: «أنا ابن الإنسان» أو «أنا نور العالم» أو «أنا خبز الحياة» أو «أنا الطريق والحق والحياة» أو «أنا القيامة والحياة» أو «أنا الراعى الصالح، وأنا المعلم والسيد» أو «أنا الكرامة الحقيقية».. ولم يذكر نفسه باسم المسيح ولكنه بارك الحوارى بطرس حين سماه به، وقال له إنه اهتدى إلى حقيقته بنفحة من نفحات الروح.

ولم تكتب هذه الأناجيل فى عصر السيد المسيح بل بعد عصره بجيلين،

ولكن مواضع الاتفاق فيها تدل على رسالة واحدة صدرت من وحى واحد، ويؤكد لنا وحدة هذه الرسالة أن فكرة الله فيها لا تشبهها فكرة أخرى فى ديانات ذلك العصر الكتابية أو غير الكتابية. فقد كانت هناك ديانات طافحة بالشعائر الخفية والمراسم التقليدية، وكانت هناك ديانات تفهم العلاقة بين الله والإنسان كأنها ضرب من علاقة الحاكم بالمحكوم أو الصانع بالمصنوع أو العلة بالمعلول، ولكن الفكرة المسيحية التى قررتها الأقوال المتفقة فى الأناجيل تتميز كل التميز عن مجمل الأفكار الإسرائيلية أو الأفكار الهندية والمجوسية أو أفكار المؤمنين بعقائد الفلسفة أو العقائد السرية. فالعلاقة بين الإنسان وخالقه فى بشارة السيد المسيح هى العلاقة بين الروح ومصدرها وبين الحياة وينبوعها وبين المكفول وكافله، وبين الرعية وراعيها، ولم تتفق هذه الصفة فى ديانة واحدة من ديانات ذلك العصر كما اتفقت فى الديانة المسيحية، وهى فى رأينا علامة جوهرية لا تقل فى قوتها عن أسانيد التاريخ التى تبطل شكوك المترددين فى وجود السيد المسيح.

وإنما طرأت الشبهة على أذهان أولئك المترددين من تماثيل بعض الشعائر على النحو الذى أجملناها فى نقدنا لكتاب أميل لدفج عن السيد المسيح حيث نقول: «إن الذى يرددونه أكثر من سواه أن كل شعيرة فى المسيحية قد كانت معروفة فى ديانات كثيرة سبقها، حتى تاريخ الميلاد وتاريخ الآلام قبل الصليب.. فاليوم الخامس والعشرون من شهر ديسمبر الذى يحتفل فيه بمولد المسيح كان هو يوم الاحتفال بمولد الشمس فى العبادة المثرية. إذ كان الأقدمون يخطئون فى الحساب الفلكى فى عهد جوليان، فيعتبرون هذا اليوم مبدأ الانقلاب الشمسى بدلا من اليوم الحادى والعشرين فى الحساب الحديث، وقد اعترضت الكنيسة الشرقية على اختيار اليوم الخامس والعشرين لهذا السبب وفضلت أن تختار لعيد الميلاد اليوم السادس من شهر يناير الذى «تعمد» فيه السيد المسيح. على أن هذا اليوم أيضًا كان عبد الإله ديونيسيس

عند اليونان وبعض سكـان آسيا الصغـرى وكان قبل ذلك عـيد أوزيريس عند المصريين، ولا يزال متخلفا فى العـادات المصرية إلى اليوم. ففى اليوم الحادى عشر من شهر طوبة - وكان يوافق السـادس من شهر يناير فى التاريخ القديم - كان المصـريون يحتـفلون بعيـد إلههم القـديم ولا يزالون يحتـفلون به فى عصرنا هذا باسم عيد الغطاس. وقد اتخذت المسـيحية اليوم الخامس والعشين من شهر مارس تذكارا لآلام السيد المسيح قبل الصلب. وهذا هو الموعد نفسه الذى اتخذه الرومـان قبل المسيح لتذكـار آلام لإله أتيس إله الرعاة المولود من نانا العذراء بغير ملامسـة بشرية، والذى حب نفسه فى هذا الموعد ونزف دمه فى جذور شجرة الصنوبر المقدسة.

وأول ما ترى أن المتشككين قد نسوه وأغفلوه ولم يقدروا قيمته أن السيد المسـيح هو صاحب الدين الذى كـان أكثـر الأديان نعيـا على ظواهر المراسم والشـعائر والـنصوص، فـمن الغـريب أن يجعـلوا تشابه المراسـم والشعـائر اوالنصوص مبطلا لوجود من أنكرها وأقام دعوته الكبرى على إنكارها.

وأغرب من هـذا أن يتخذوا تشـابه المراسم والأخبـار دليلا على تلـفيق تاريخ السيد المسيح.. مع أن التواريخ جميـعا حافلة بأسماء الأبطال المحققين الذين نسب إليهم كل عمل من نوع أعمـالهم وكل خليقة من نوع خلائقهم، فإذا اشتهروا بالشجاعة رويت عنهم كل أخبار الشجعان ما ثبت منها لهم وما لم يثـبت منها إلا لغـيـرهم، وإذا اشتـهروا بالفكاهـة نسبت إليـهم فكاهات المعروفين والمجهولين ولا تزال تنسب إليهم على مر السنين وهكذا يصنع الرواة بأخبار كل مشهور سواء كانت شهرته بالمحمود أو بالمذموم من الصفات.

فإذا اختلـطت الروايات فى أخبار المسيح فليس فى هذا الاخـتلاط بدع ولا دليل قـاطع على الإنكار. وقد قـلنا فى تعليقنـا على تلك الملاحظات أنه «لو كان اختلاط الرموز والشعائر من موجبات الشك فى شهور الرسل لوجب أن نشك فى وجـود النبى عليه الـسلام لما فى الإسـلام من شعـائر الحج التى

أحـيـاها على سنن العـرب قبلـه، ولوجب أن نشك فى وجـود على بن أبى طالب لما أحاط به من أساطيـر بعض المذاهب الغالية.. وفى مقدمـتها انتظار الإمام أو المهـدى أو المسيح وهى عقـيدة تتشـابه فيهـا تلك المذاهب المسيحـية والإسرائيلية ووثنية المجوس».

ومما فـات أصـحـاب الملاحظات المتـقـدمة أن آباء الـكنائس الأولى لم يحتفـلوا بتلك الأعياد وهم يجهلون تواريخـها. ولكنهم بدأوا بالاحتـفال بها لاعتبـارهم أن إكرام السيد المسـيح فيها أجـدر بالمسيحيين من إكـرام الشمس والكواكب وسائر الأرباب الوثنيـة.. وكانوا يرون أتباع الكنيسـة يندفعون إلى محافل الوثنـيين فى تلك الأيام فيصرفونهـم عنها بإحياء المحافل التـى تقابلها وتمجيد السيد المسيح فيها بديلا من تمجيد الأوثان.

***

الإسلام

مضى على مولد السيد المسيح نحو ستة قرون قبل ظهور الإسلام. تشعبت فى خلالها المذاهب المسيحية بين قائل بطبيعة واحدة للسيد المسيح وقائل بطبيعتين اثنتين: هما الإنسانية والإلهية، وبين مؤله للسيدة مريم ومنكر لهذا التأليه، وبين مفسر لنبوة السيد المسيح بأنه ابن الله ولكنها بنوة على المجاز بمعنى القرب والإيثار على سائر المخلوقات وقائل بأن السيد المسيح هو ابن الله على الحقيقة التى يفهمها المؤمن على نحو يليق بالذات الإلهية.

وتسربت هذه المذاهب جميعا إلى الجزيرة العربية مقرونة بالبراهين الجدلية التى يستدل بها كل فريق على صحة تفسيره وبطلان تفسير معارضيه، وكان كثير من تلك البراهين مستمدا من المنطق ومذاهب حكماء اليونان، فإن أوريجين ونسطور وآريوس أصحاب الآراء الفلسفية واللاهوتية التى جاءت بها الفرق المختلفة كانوا من المطلعين على الفلسفة الإغريقية والملمين على التخصيص بآراء هيرقليطس وأفلاطون وأرسطو وزينون.

وقد عرف العرب أطرافا من هذه المذاهب بعد هجرة المهاجرين منهم إلى العراق وسورية وفلسطين، كما عرفوها بعد هجرة المهاجرين إلى بلادهم من رهبان تلك الأمم وتجارها وسائحيها، وهم غير قليلين.

وتسربت مذاهب اليهودية قبل ذلك إلى أنحاء الجزيرة العربية، ولم تزل تتسرب إليها بعد ظهور المسيحية واحتكاك اليهود بالنصارى فى جوانب الدولة الرومانية، وكانت لليهود مذاهب فى الدين تمتزج بالفلسفة حينا وبالتأويلات اللاهوتية حينا آخر، على مثال الامتزاج بين مذاهب المسيحية وأقوال الفلاسفة واللاهوتيين.

وكانت جزيرة العرب على اتصال لا ينقطع بالفرس ومن جاورهم من أمم المشرق ولا سيما فى بلاد البحرين وبلاد اليمن على الشواطئ فى داخل

الصحراء العامرة، فنقل الفرس إلى تلك الأصقاع هياكل النار وعبادة الكواكب وغيرها من بقايا الديانة المجوسية.

ولم يتلق العرب النصرانية من مصدر واحد أو من مصدر الشمال دون غيره. فقد كانت للحبشة نصرانية ممزوجة بالوثنية التى تخلفت من عقائدها الأولى، وكان يهود الحبشة على شيء من الوثنية يختلط بعقائد المجوس وعقائد الأحباش والعرب الأقدمين.

ودان قليل من العرب بهذه الديانات على أوضاعها الكثيرة التى يندر فيها الإيمان بالوحدانية الخالصة وعقيدة التنزيه والتجريد. أما الأكثرون منهم فكانوا يعبدون الأسلاف فى صور الأصنام أو الحجارة المقدسة، وكانوا يحافظون على هذه العبادة السلفية كدأب القبائل جميعا فى المحافظة على كل تراث من الأسلاف، ولكنهم كانوا يعرفون «الله» ويقولون أنهم يعبدون الأصنام ليتقربوا بها إلى الله.

فلما ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية كان عليه أن يصحح أفكارا كثيرة لا فكرة واحدة عن الذات الإلهية، وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط شتى من بقايا العبادات الأولى وزيادات المتنازعين على تأويل الديانات الكتابية.

فإذا كانت رسالة المسيحية أنها أول دين أقام العبادة على «الضمير الإنسانى» وبشر الناس برحمة السماء - فرسالة الإسلام التى لا التباس فيها أنها أول دين تمم الفكرة الإلهية وصححوا مما عرض لها فى أطوار الديانات الغابرة.

فالفكرة الإلهية فى الإسلام «فكرة تامة» لا يتغلب فيها جانب على جانب، ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة، ولا تجعل لله مثيلا فى الحس ولا فى الضمير، بل به «المثل الأعلى» وليس كمثله شيء.

فـالله وحـده «لا شـريك له». . «ولم يكن له شـركـاء فى الملك». . . «فتعالى الله عما يشركون». . . «وسبحانه عما يشركون».

والمسلمـون هم الذين يقـولون: «ما كـان لنا أن نشـرك بالله». . «ولن نشرك بربنا أحدا».

ويرفض الإسلام الأصنام على كل وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التقريب. ولله المثل الأعلى من صفات الكمال جمعاء، وله الأسماء الحسنى. فلا تغلب فيه صـفات القوة والقدرة على صفات الرحـمة والمحبة، ولا تغلب فيـه صفات الرحمـة والمحبة على صفـات القوة والقدرة. فهـو قادر على كل شىء وهو عـزيز ذ انتقـام، وهو كذلـك رحمن رحـيم وغفـور كريم. . قـد وسعت رحمته كل شىء. و«يختص برحمته من يشاء» وهو الخلاق دون غيره و«هل من خالق غير الله؟».

فليس الإله فى الإسلام مصدر النظام وكفى، ولا مصدر الحركة الأولى وكفى، ولكن «الله خالق كل شىء». . . و«خلق كل شىء فـقدره» و«إنه يبدأ الخلق ثم يعيده». . . و«هو بكل خلق عليم».

ومن صفات الله فى الإسلام ما يعـتبر ردا على «فكرة الله» فى الفلسفة الأرسطيـة كما يعـتبـر ردا على أصحـاب التأويل فى الأديان الكتـابية وغـير الكتابية.

فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعـقل ما دونها، ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلب فى رأيه والله كـمال لا يطلب شيـئًا غيـر ذاته، ويجل عن علم الكليات والجـزئيات لأنه يحسبـها من علم العقول البـشرية، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة. . لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعى إليه.

ولكن الله فى الإسلام «عالم الغيب والشهادة». . و«لا يعزب عنه مثقال ذرة» وهو بكل خلق عليم «ومـا كنا عن الخلق غـافلين». . . «وسع كل شىء علما». . «ألا له الخلق والأمر». . . «عليم بما فى الصدور».

وهو كذلك مريد وفعال لما يريد. «وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان» وفى هذه الآية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات كما جاء فى أقوال بعض المفسرين، ولكنها ترد على كل من يغلون إرادة الله على وجه من الوجوه، ولا يبعد أن يكون فى يهود الجزيرة من يشير إلى رواية من روايات الفلسفة الأرسطية بذلك المقال.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة فجاء فى سورة الحج «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، إن الله على كل شيء شهيد» وأشار إلى الدهريين فجاء فيه من سورة الأنعام: «وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين» وجاء فيه من سورة الجاثية: «وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون».

فكانت فكرة الله فى الإسلام هى الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة فى هذه العقائد الدينية وفى المذاهب الفلسفية التى تدور عليها. ولهذا بلغت المثل الأعلى فى صفات الذات الإلهية وتضمنت تصحيحا للضمائر وتصحيحا للعقول فى تقرير ما ينبغى لكمال الله، بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس.

ومن ثم كان الفكر الإنسانى من وسائل الوصول إلى معرفة الله فى الإسلام، وإن كانت الهداية كلها من الله: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء».. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله».

ومجمل ما يقال فى عقيدة الذات الإلهية التى جاء بها الإسلام أن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات.

فالله هو «المثل الأعلى».

وهو الواحد الصمد الذى لا يحيط به الزمان والمكان وهو محيط بالزمان والمكان و«هو الأول والآخر والظاهر والباطن».. «وسع كرسيه السموات والأرض».. «ألا إنه بكل شىء محيط».

وقد جاء الإسلام بالقول الفصل فى مسألة البقاء والفناء. فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفانى صورة أقرب إلى الفهم من صورتهما فى العقيدة الإسلامية، لأن العقل لا يتصور وجودين سرمديين، كلاهما غير مخلوق، أحدهما مجرد والآخر مادة، وهذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لهما انتهاء.

ولكنه يتصور وجودا أبديا يخلق وجودا زمانيا، أو يتصور وجودا يدوم ووجودا يبتدئ وينتهى فى الزمان.

وقديما قال أفلاطون - وأصاب فيما قال - إن الزمان محاكاة للأبد.. لأنه مخلوق والأبد غير مخلوق.. فبقاء المخلوقات بقاء فى الزمن، وبقاء الخالق بقاء أبدى سرمدى لا يحده الماضى والحاضر والمستقبل، لأنها كلها من حدود الحركة والانتقال فى تصور أبناء الفناء، ولا تجور فى حق الخالق السرمدى حركة ولا انتقال.

فالله «هو الحى الذى لا يموت».. «وهو الذى يحيى ويميت» و«كل شىء هالك إلا وجهه».. ولا بقاء على الدوام إلا لمن له الدوام ومنه الابتداء وإليه الانتهاء.

وقد تخيل بعض المتكلمين فى الأديان أن هذا التنزيه البالغ يعزل الخالق عن المخلوقات، ويبعد المسافة بين الله والإنسان.. وأنه لوهم فى الشعور وخطأ فى التفكير، لأن الكمال ليست له حدود، وكل ما ليست له حدود فلا عازل بينه وبين موجود.. وفى القرآن الكريم «ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله».. «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد».

ولا شك أن العالم كان فى حاجة إلى هذه العقيدة كما كان فى حاجة إلى العقيدة المسيحية من قبلها، وتلقى كلتيهما فى أوانه المقدور. . فجاءه السيد المسيح بصورة جميلة للذات الإلهية جاءه محمد عليه السلام بصورة «تامة» فى العقل والشعور.

وربما تلخص المسيحية كلها فى كلمة واحدة هى الحب. .

وربما تلخص الإسلام فى كلمة واحدة هى «الحق».

«ذلك بأن الله هو الحق». . «إنا أرسلناك بالحق بشيرا». . «فتعالى الملك الحق». . «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل».

ومن ملاحظة الأوان فى دعوات الأديان أن المسيحية دين «الحب» لم تأت بتشريع جديد، وأن الإسلام دين «الحق» لم يكن له مناص من التشريع.

فما كان الناس عند ظهور السيد المسيح بحاجة إلى الشرائع والقوانين، لأن شرائع اليهود وقوانين الرومان كانت حسبهم فى أمور المعاش كما يتطلبها ذلك الزمان. وإنما كانت آفتهم فرط الجمود على النصوص والمراءاة بالمظاهر والأشكال فكانت حاجتهم إلى دين سماحة ودين إخلاص ومحبة، فبشرهم السيد المسيح بذلك الدين.

ولكن الإسلام ظهر وقد تداعى ملك الرومان وما زال سلطان الشرائع الإسرائيلية، وكان ظهوره بين قبائل على الفطرة لا تترك بغير تشريع فى أمور الدنيا والدين يزعها بأحكامه فى ظل الحكومة الجديدة ويوافق أطوارها كلما تغيرت مواطنها ومواطن الداخلين فى الدين الجديد. والعبرة بتأسيس المبدأ فى حينه، ولم ين عن تأسيس المبدأ فى ذلك الحين من محيد.

وإذا بقى الإيمان بالحق فقد بقى أساس الشريعة لكل جيل وفى كل حال.